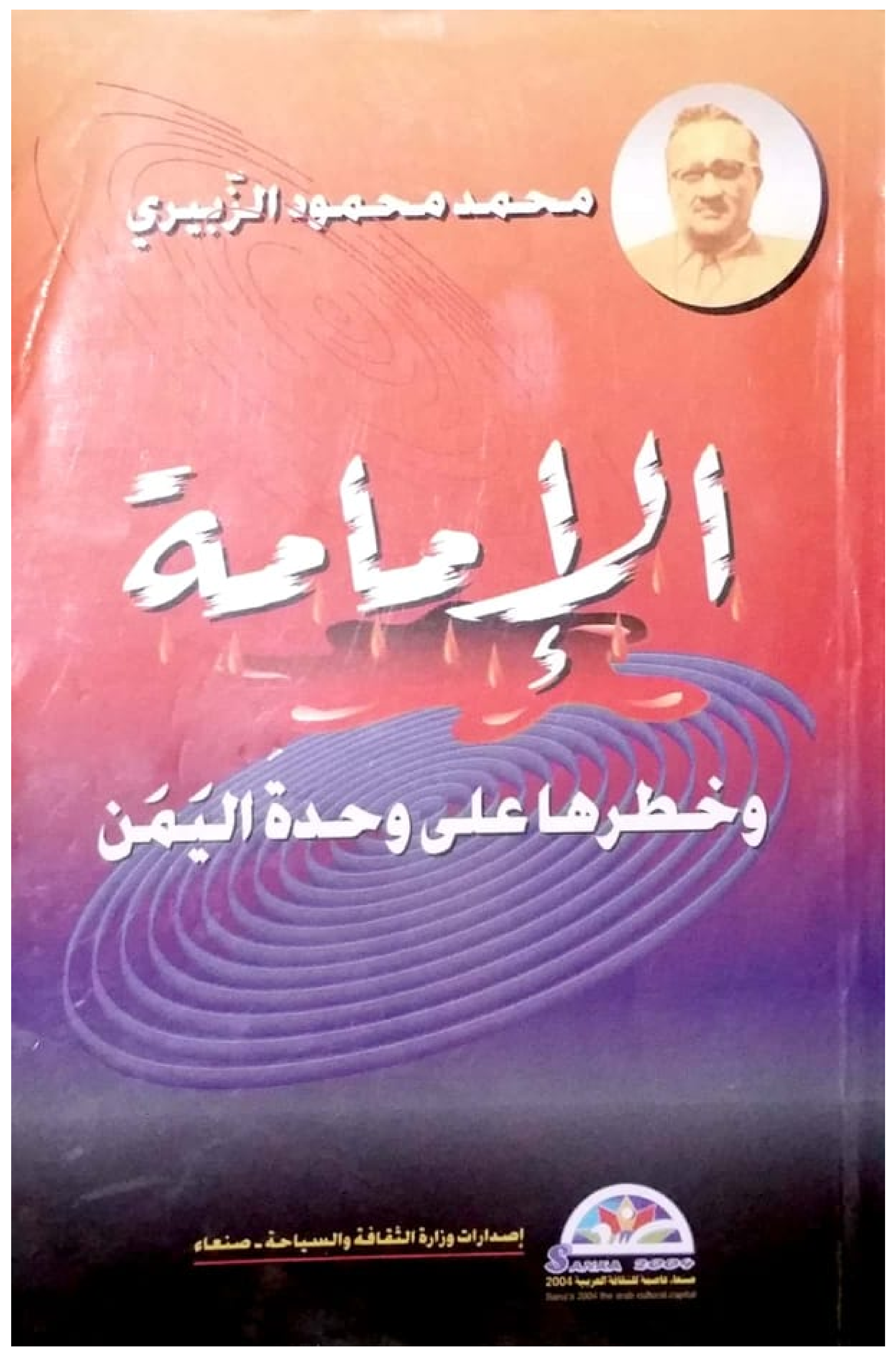


Scanned by CamScanner

مُحَمَّد مَحمُود الزُّبَيري

الإمامة
وخطرها على وحدة اليمن

* * *

الخدعة الكبرى

* * *

قصائد
من شعره في الثورة

* * *



إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء

١٤٢٥هـ - 2004 م

رقم الإيداع بدار الكتب بصنعاء
(٢٠٠٤/٧١٩)

الناشر
الجمهورية اليمنية
وزارة الثقافة والسياحة
صنعاء - ص.ب. (36)-(237)
هاتف: 235114 - فاكس: 235113
بريد الكتروني: moc@y.net.ye

من بهاء صنعاء... وتجليات عبقها.. في عام تتويجها عاصمة للثقافة العربية.. يأتي هذا الاحتفاء بمجد الكلمة.. وجلال أنوارها.
في بدء الوعي الإنساني كانت الكلمة..
وعلى رأس فعاليات هذا العام الاستثنائي تأتي هذه الإصدارات.. حدثاً يتوج صنعاء فضاءً شاسعاً للثقافة والتاريخ والجمال والخصوصية.

خالد عبد الله الرويشان
وزير الثقافة والسياحة

حَتَّى لَا نَنْسَى[1]

إنَّ أهمِّيَّة هَذا الكِتاب مِنْ أهمِّيَّة كاتِبه، وَأهمِّيَّة مَوضُوعه كَذلك. الكاتِبُ وَاحدٌ مِنْ أعلام الحُرِّيَّة في اليمَنْ، بَل هُوَ علمُهَا الكَبيْر، وَشاعِرهَا الفَذّ.. أبو الأحرار الشَهيد محَمَّد محمُود الزُبَيْري، وَالذي اغتالَتْهُ أحقَاد الإمَامَة وَأذيالهَا، وَهُوَ يُدافِع عَنِ الثَوْرَة وَالجُمهوريَّة.. وَحلمِه الكَبيْر الوحْدَة اليَمنيَّة، وَكانَ ذَلِكَ في مُنْتَصف سِتِّينيّات القَرْن المَاضِي.

إنَّ هَذا الكِتَاب جَديْرٌ بأنْ يَدخُل بَيْتَ كُلِّ يَمنيّ، وَكُلِّ مَدرسَة وَجامِعَة، وَأنْ تَقْرَأهُ الأجيَال تِلْوَ الأجيَال كَيْ تَعْرِفَ خُطُورَة فِكْر الإمَامَة عَلى وحْدَة اليمَنْ وَتَقَدُّمه وَسَلامَة أمنِه الإجْتماعي.

كانتَ الإمامةَ الأكثرَ تخلُّفاً بينَ أنظمةِ العالمْ.
نظامٌ يقومُ على الطائفيّةِ المذهبيّة، وجبايةِ الزّكاةِ فقط.
لا مستشفيات، ولا مدارسَ ولا طرقٌ ولا جامعات..
لا شيءَ على الإطلاق، بل جهلٌ وأمراضٌ ومخافةٌ
وإمامٌ. حسبَ تعبيرِ الشهيدِ الزبيري رحمهُ الله.
نقدِّم هذا الكتابَ لأجيالنا الجديدةِ التي لم تعشْ
فترةَ الأئمّةِ الظالمةِ المظلمةِ، وحتّى لا ننسى معاناةَ
شعبنا اليمنيّ في ظلِّ حكمِ الأئمّةِ الكهنوتي،
تلكَ المعاناةُ التي يريدُ بعضُ الإماميّينَ مِن محترفي أحلامِ
اليقظةِ إرجاعَ اليمنِ إلى عهودِها الظلاميّة..
وهيهاتَ أنْ يرجعَ التاريخُ إلى الوراء.

علي عبدالله صالح
رئيس الجمهورية

الإمامة
وخطرها على وحدة اليمن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

بقلم الأستاذ قاسم غالب أحمد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل المرسلين وبعد:

فهذا الكتيب الذي نقدمه للقراء "الإمامة وخطرها على وحدة اليمن" كان قد أصدره الاتحاد اليمني في أحلك ظروف اليمن وأشدها قسوة على الشعب، حرره القاضي محمد محمود الزبيري في هذه الفترة بعيداً عن كافة المؤثرات الفرعية متمثلاً لقضية الشعب الذي أحبه وآمن به راسماً في هذه الصفحات القليلة الطريق إلى الحرية والوحدة الصادقة لشعب اليمن العظيم.

وعندما عاد الزبيري مع المخلصين من الأحرار إلى اليمن بعد قيام الثورة اتجه بعضهم إلى العمل والانتاج وفي المقدمة الزبيري الذي ألقى بكيانه في أحضان المعركة السياسية متمسكاً بكل خيط منها وسواء تحركت معه أخطر مشاكل اليمن وأدقها أم لم تتحرك فقد ظل متجهاً في طريقه الذي رسمه لنفسه مندفعاً وراء معالجة الأحداث الكثيرة المتشعبة.

لقد أصدر الاتحاد اليمني في القاهرة وعدن عدة مطبوعات للأستاذ الزبيري النعمان وعبد الله الحكيمي ومحمد أحمد نعمان وغيرهم أمثال الأستاذ أحمد المعلمي وكلها كانت تهدف إلى فضح الكهنوت الإمامي وتدعو إلى محاربة الإمامة والاستعمار اللذين فرضا على اليمن أن ينشطر إلى شطرين كما كانت الوحدة اليمنية هي الهدف يومئذ كما هي المطلب اليمني اليوم.

وإن خطر الإمامة على هذه الوحدة لم يكن أقل من خطر الاستعمار وحتى إعادة هذه الطبعة بعد انقراض الإمامة وتشييع جنازة الاستعمار إلى لحده العميق فإننا نذكّر شعبنا بمآسيه وما لاقى من المحن والفرقة على يد الإمامة البائدة وحليفها الاستعمار المنقرض.

فإلى القرّاء نقدّم هذا الكتيّب والله ولي التوفيق.

قاسم غالب أحمد

السيادة الشعبية والمساواة

إننا نريد أن نحرر حياتنا وعقولنا من كل ضروب العبودية وتتمثل في الاستعمار ودعاته - وفي الحكم الاستبدادي الذي يُمسك بخناقنا، وفي العبودية الروحية التي تتجلى في الأوهام الغاشمة الزائفة والتي ترزح تحت عبئها روح الشعب وتسحق تحت وطأتها آدمية الجماهير، وتتعطل بسببها عجلة التاريخ ونواميس التطوّر، وفيها دون ذلك ما ينذر بتمزيق الشعب وتحطيم وحدته.

كما نريد أن نتحرر من العبودية الاجتماعية الكامنة في بعض التقاليد الرجعية والفوارق التي تميز بين طبقات الشعب وفئاته تمييزاً لا يقوم على أساس من المنطق أو الحق.

ولقد حدّدنا مواقفنا في مجال التحرر السياسي والاجتماعي بمحاضراتنا وفي كتيّبات مطالب الشعب وأهداف الأحرار، وسوف نحدد مواقفنا في المجالات الأخرى على مر الأيام وبمختلف الوسائل.

الوحـدة الوطنية

اليمن جزء صغير من الوطن العربي الكبير ولكن الاستعمار، بمواطأة الرجعية، قسّمه إلى قسمين.

والاستبداد في عهود الظلام والجهل أبى إلا أن يبث الفرقة السخيفة بين أبناء القسم المستقل فيغذي بتصرفاته الغاشمة الفرقة المذهبية والإقليمية، ويفرّق في معاملاته بين ما يُسمى قسماً شافعياً ثم يفرّق بين الأقسام الاقليمية والقبلية وبين القرى والمدن ويُنمّي روح التمجيد بالعرق والسلالة.

فعل هذا الاستبداد الإمامي كي يتسنى للقاعدة الشيطانية "فرّق تسُد" أن تمزق وحدة الشعب وتمنعه من التكتل ضد الأوضاع القائمة، ولكن العهود الرجعية الظالمة قد أخفقت إلى حد كبير إزاء وعي الشعب وصلابته وفطرته، ذلك أن الشعور الوطني العميق والإحساس الفطري بالوحدة القومية العنيدة الصلبة التي لا يمكن تفتيتها بمجرد معاهدات شخصية بين الحكام والمستعمرين لا تعدو أن تكون قصاصات من الورق.

وعدا ذلك فإن الاستياء المشترك الذي شمل كل الطبقات في اليمن المستقلة الإمامية وانتشر في كل منطقة وكل قبيلة ومدينة وقرية كان ولا يزال أقوى من كل أحابيل التمزيق والتفريق بل لقد شكل التمزيق رباطاً من الألم قدسياً، ووحّد أهداف الشعب ومشاعره ونضاله لا سيما بعد أن تولى الأحرار مهمة الدعوة إلى الوحدة الشعبية ونبّهوا أبناء الشعب إلى الكيد الشيطاني الذي يريده الطغيان والاستعمار ضد كيانهم الوطني والقومي.

فالوحدة المحلية اليمنية إنما نقصد بها أن تتمكن وتتعمق في القسم المستقل وأن تتحقق في أجزاء القسم الآخر ليقوم نظام

مشترك بين أبناء الشعب في القسمين تمهيداً للوحدة السياسية الكاملة بين الجزءين الرئيسيين على أن لا تتم الوحدة بينهما إلا بعد التحرر من الاستعمار والاستعباد.

خطر الإمامة على الوحدة الوطنية

إن الإمامة من أساسها فكرة مذهبية طائفية يعتنقها من القديم شطر من الشعب وهم الزيدية أي الهادوية سكان اليمن الأعلى فقط، أما أغلبية الشعب في اليمن، بما ذلك الجنوب المحتل، فإنهم جميعاً لا يدينون بهذه الإمامة ولا يرون لها حقاً في السيطرة عليهم بل إنهم يرون فيها سلطة مفروضة عليهم سياسياً ودينياً وهذه الإمامة لا تقف عند حدود سلطانها السياسي، بل تفرض على شطر الشعب معتقدات وطقوساً وأحكاماً مذهبية لا تتفق مع مذهبه.

التحكم

وهذا التحكم من شأنه أن يخلق شعوراً مريراً لدى أكثر الشعب يجعل الانقسام ظلاً قائماً رهيباً يخيّم على البلاد ويهدد مصيرها على الدوام، كما يجعل الحكومة الإمامية، في نظر هذا القسم، كأنها حكومة دخيلة عليه لا تعبّر عن إرادته ولا عن عقيدته؛ والأدهى من ذلك أن يراها وكأنها حكومة خاصة باليمن الأعلى فحسب.

طبقة حاكمة

وكأن سكان اليمن الأعلى طبقة حاكمة تحتكر الحكم لنفسها وتجعل من اليمن الأسفل مجرد مجال حيوي لها.

هذا بينما سكان اليمن الأعلى، العقلاء منهم، أبرياء من هذا الافتئات والظلم بل إنهم لبثوا الدهر الطويل يعانون مرارة الطغيان الإمامي ويرون فيه حكماً طارئاً عليهم دخيلاً على حياتهم يفرض عليهم، إلى جانب السلطة السياسية، سلطة روحية تعيش في دمائهم كالكابوس الرهيب وتشل عروبتهم وآدميتهم وتعزلهم في ظلام من الجهل والحرمان والتجويع، وتجرعهم المعتقدات الإمامية المسمومة ثم تطلقهم على الفريق الآخر من مواطنيهم كالذئاب المسعورة.

وهكذا نجحت الإمامة في تصنيف الشعب إلى فريقين مختلفين كل فيهما مطية إلى هدف من أهدافها. وإذا كان القسم اليمني يقاسي الكثير من السلب والقهر فالقسم الأعلى يتجرّع السموم الروحية التي ترغم أبناءه على الطاعة العمياء للإمام دون مناقشة ولا حساب ودون أن ينتظر جزاء.

رمان الإمام وعنبه

عندما تمطر السماء، يُقال له هذه بركات الإمام.. وعندما تمحل يُقال له هذه دعوة من الإمام ضد العصاة المتمردين.. الزكاة لا تُعطى إلا للإمام، وبعض الصلوات لا تؤدّى إلا بوجود الإمام ثم يجيء الرخاء فيكون بفضل الإمام ـ ويحل الفقر والبؤس والموت فيحال البائسون المقتولون التعساء إلى رمان الإمام وعنبه ونعيمه في الجنة.

مَن مات من الجوع فهو شهيد

حلّت إحدى المجاعات الإمامية الرهيبة باليمن ومات أكثر أهلها بعد أن أكلوا الكلاب والقطط، وكانت خزائن الحكومة ملأى بالحبوب وراح الناس يسألون الإمام يحيى النجدة فصعر خده لهم وقال كلمته المشهورة:

"مَن مات فهو شهيد ومَن عاش فهو عتيق".

الشخصية اليمنية في عهد الإمامة

انسحقت شخصية اليمنين في ظل الإمامة وحرّمت عليهم قيادة بلدهم، وصار التفكير فيها جريمة دينية وسياسية في وقت

واحد، وشُوّه التاريخ اليمني فأصبحنا ـ لا نقرأ فيه إلا أسماء القديسين الآلهة من الأئمة وأذنابهم وأشياعهم. أما شخصية الشعب فما يكاد يرفع رأسه للعزة والكرامة بطل من أبطالها حتى يسرع به الأئمة الأطهار ويبعثوا به مشيّعاً بلعناتهم إلى قبره، ثم لا يذكرونه في التاريخ إلا على أنه الباغي عدو الله الفاسق الملحد الكافر التأويل إلى آخر هذه الألقاب.

وهكذا استمرت عملية السحق لعروبة اليمن وشخصياتها ـ الشعبية وثوراتها النضالية أكثر من ألف عام.

حكم مستمد من السماء

كل ملوك الأرض وكل طغاتها في التاريخ لا يستطيعون التربع على عروشهم إلا على أساس عصبية أو طبقية يكسبونها في قومهم ويشركونها في مكاسبهم ويضطرون إلى استرضائها بضروب من الزلفى والاصلاح، حتى في أشد عصور التاريخ ظلاماً، إلا أئمة اليمن فلم يشعروا بالحاجة إلى شيء من هذا فقد استطاعوا أن يُقنعوا الشعب بأن لا ينتظر من وراء نصرتهم وخدمتهم أي جزاء، وشعارهم المأثور:

من أحبنا أهل البيت فليستعد للبلاء جلباباً. حسب الواحد منهم أن يتربّع على العرش ثم يقول للناس أن الله هو الذي ولاّه، أن الله هو الذي أمر الناس أن يطيعوه وأن يخدموه وأن يقدّسوه

وأن يموتوا في سبيل نصرته. إن حكمه ليس مستمداً من الشعب ولا من فضل الشعب بل هو منحة من السماء، إنه ظل الله ونائب الله وخليفته.

مهمة الإمام

بهذه النفسية يمارس الإمام أعباء منصبه وتكاد هذه الأعباء تنحصر في استصفاء ثروة الشعب باسم الزكاة، وقمع الانتفاضات الشعبية باسم الجهاد وقتال البغاة، ثم بناء مسجد باسم الإمام تُضاف إلى جواره غالباً قبة الضريح لهذا الإمام تمد نفوذه الروحي حتى وهو في القبر. ثم تركة ضخمة من الأرض يخلفها لأولاده وأحفاده بعد أن يبتزها من الشعب.

زهد الإمامة ورسالتها

أما رسالة الأئمة الرئيسية التي يضطلع بها الإمام فهي بث روح الزهد والانصراف عن عمارة الحياة والتنديد بكل نزعة إلى البناء والعمران ما عدا بناء القصور الإمامية والمساجد وقبور الأضرحة لأمواتهم.

وهذا عندهم هو المفتاح السحري للسر المغلق في تاريخ اليمن منذ أكثر من ألف عام هذه الفترة الهامدة الشلاء.

لقد كانت اليمن، والإنسانية في مهدها، ذات مدنية وحضارة وفنون شتى في الحياة من أهمها: الفنون المعمارية

وهندسة السدود التي لا حياة لليمن بدونها. وقد مرّت هذه العصور الإمامية الطويلة ولم يبق فيها سد واحد في طول اليمن وعرضها.

الأحباش المستعمرون

رغم أن الأحباش المستعمرين المتوحشين الذين لم يلبثوا في اليمن غير سبعين عاماً من أعوام العصور السحيقة - المظلمة ألهمتهم ظروف اليمن الطبيعية واحتياجاتها الزراعية أن يعيدوا بناء السد في مأرب بعد انهياره.

مهمة أخرى للإمام

والمهمة الأخرى لأي إمام هي تدعيم مركزه الروحي بين القبائل تحت ستار التشيع لآل البيت حتى يرسخ في عقلية الشعب بالقسم الأعلى أن الإمام ظل الله ونائبه حقاً وأن منزلته كمنزلة رسول الله ينظّم علاقته بالناس ومركزه فيهم تشريع إلـهي في هذه الآية الكريمة:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٦].

فكل ما ورد في طاعة الله ورسوله ينطبق على الإمام لأنه نائب الله وخليفته وتقترن هذه التعاليم الروحية في القسم الأعلى بالحملات الطائفية. ضد ما يسمونهم "كفار تأويل" الذين لا

يدينون بالمذهب الإمامي وهم أكثرية البطش والسلب التي لا بد لكل إمام من تجريدها ضد المزارعين الآمنين من أبناء الشعب في اليمن الأسفل وتهامة.

الإمامة والاجتهاد

إن اليمن، حتى في ظل الإمامة، كانت زاخرة بالنشاط العلمي لأن الشعب اليمني ذو إرث حضاري عريق نزّاع بفطرته إلى العلم والمعرفة، جوّال من أجل ذلك في آفاق الأرض؛ وزاد في هذه النزعة أن باب الاجتهاد مفتوح وأن شروط الإمام المنتخب أن يكون قد بلغ درجة الاجتهاد. والفضل في هذه الحرية العلمية عندهم هو في الأساس الذي قامت عليه الإمامة بالذات فما كان للأئمة أن يقوم لهم كيان منفصل عن سلطة الخلافة الإسلامية إلا إذا استطاعوا تحطيم الإطار التقليدي الذي كان يحيط بشعوب الخلافة العربية الإسلامية.

المذاهب تحددت بأربعة

فقد كانت الفكرة العتيدة الصلبة القائلة إن المذاهب الإسلامية قد تحددت في المذاهب الأربعة وأصبح من الصعب التفكير في خلق مذهب آخر إلا بمغامرة ثورية.

فقه الأئمة الأربعة

ولما كان فقه الأئمة الأربعة وعلومهم ومذاهبهم إنما نشأت في ظل الخلفاء الأمويين والعباسيين وأغفلت بطبيعة الحال حتى آل البيت في الخلافة، كان لا بد لأي طامح من العلويين يريد أن ينتقم أو يثأر أو يؤسس دولة علوية على أساس ديني لاسترداد حق آل البيت في الخلافة، لا بد لأي طامح من هذا الطراز أن يحطم قبل كل شيء القوالب الحديدية التي صبّ فيها الأئمة الأربعة قواعد الفقه والتشريع والأصول الإسلامية جميعاً وأغلقوا بعدها باب الاجتهاد.

المذهب الخامس السياسي

فمن هنا قامت النظرية الثورية الإمامية وهي فتح باب الاجتهاد ليدخل منه أول مذهب خامس وهو مذهب الهادي المُسمّى بالزيدي، وليتسنى له أن يقحم على أصول الدين نظرية سياسية لا يعترف بها الأئمة الآخرون.

وهي أن الخلافة لا يجوز أن تكون إلا في العلويين من أبناء فاطمة، كما يأتي بنظرية سياسية دينية أخطر وهي وجوب الخروج على الظلمة وذلك ليتأتى له أن يثور على الخلفاء ويؤسس دونهم دولة وخلافة للعلويين من آل البيت.

الهدف المقصود

إذاً فالهدف الرئيسي للمضطهدين الطامحين من العلويين هو استرداد حق العلويين في الخلافة، هذا الهدف هو الذي فتح باب الاجتهاد أولاً وخلق نظرية الخروج على الظلمة، ثم نظرية الهدف نفسه وهي اختصاص العلويين بحق الخلافة.

حرية الاجتهاد

تلك هي بعض النظريات الدينية والسياسية التي نادى بها دعاة الأئمة.

إنها نظريات رائعة بحق ولكن القيمة الحقيقية لها والميزان الصادق الذي به يحكم التاريخ لهؤلاء الأئمة أو عليهم إنما هو في مدى نصيب هذه النظريات من التطبيق العملي في واقع الحياة.

الاجتهاد التي استفادت منه الإمامة سياسياً

ومن الملاحظ في أمر الاجتهاد بأنه محرّم في المسائل الأصولية، ولهذا فلم ينتفع أحد بحرية الاجتهاد في ميادين الصراع حول المشكلات الإسلامية الخطيرة، ولم تبرأ دعوة الأئمة من بث روح العصبية في سكان القسم الأعلى ضد سكان القسم الأسفل وفي أوساط القبائل ضد سكان المدن.

إتهام أصحاب النِحَل الإسلامية

ونعتت الإمامة أصحاب النِحَل الإسلامية منهم كالأشعرية بأنهم كفار تأويل لاستغلال هذه النظرية في مآرب سياسية واقتصادية.

وحتى في مسائل الفقه التي قد تمس شؤون الحكم والإدارة من قريب أو من بعيد فإن مذهب الإمام هو المفروض على الشعب في الشمال والجنوب ولا قيمة لأي اجتهاد يخالف مذهب الإمام.

وعدا هذا كله، فإن حرية الاجتهاد تضاءلت فعاليتها واضمحلت على مدى السنين وحلّت محلها حقيقة رهيبة وهي أنها بينما كانت توجد عند العلماء حرية صورية من الناحية النظرية فحسب كان دعاة الفكرة الإمامية يعملون في أوساط القبائل في اتجاه عكسي ينشرون عقيدة التقديس والتأليه لمنصب الإمام وكل ما يحيط بهذه العقيدة الأساسية من نظريات تابعة لهم تخدم كلها عرش الأئمة وتصنع لهم، من عنصر القبائل، قاعدة شعبية متعصبة جاهلة تلغي كل قيمة لحرية الاجتهاد، وتخمد أنفاس العلماء الأحرار وتجعلهم يعيشون في ما يشبه الحصار الخانق طوال حياتهم حتى إنه قد يخلف الإمام المتعصب إمام معتدل يحاول تشجيع العلماء الأحرار ولكن الطبقة الحاكمة من الأشياع حوله يحركون العناصر المتعصبة المحاربة فتجرد الإمام من حوله وطوله وتفرض عليه الرأي الذي تريد.

محنة ابن الأمير الصنعاني

والتاريخ اليمني يحدثنا أن العلاّمة محمد بن اسماعيل الأمير المولود سنة ١٠٩٩ هـ وهو قطب من أقطاب العلماء الهاشميين الأحرار، ويمثل النضال النبيل ضد النزعة الإمامية المتعصبة؛ وقد عانى خطوباً كثيرة في عهد المتوكل على الله القاسم بن الحسين ثم المنصور الحسين بن القاسم ثم في أيام الإمام المهدي العباس بن الحسين.

ولاّه المنصور منصب الخطابة في الجامع الكبير بصنعاء فحاول أن يسقط ذكر الأئمة من الخطبة فتآمر آل الإمام مع شخص دخيل يدعى السيد يوسف العجمي، تآمروا على قتل محمد بن اسماعيل في الجمعة القادمة فاعتقلهم المنصور ثم طرد العجمي من اليمن وأفرج عن الآخرين ولم يسمح للأمير بالخطبة بعد ذلك.

وقد اتهم الأمير بالعداء لآل البيت رغم أنه منهم وذلك إذ يرونه يجرؤ على الاجتهاد في ما يخالف المذهب السائر وذلك كرفع اليدين وضمهما في الصلاة.

كتب السُنّة محرّمة عند الإمامة

قال الشوكاني: وتركوا الخروج على الإمام لأنه لا مطمع لهم في غير المال والدنيا. ثم قال الشوكاني: ومن محن الدنيا أن يدخل الألوف من هؤلاء المتعصبين إلى صنعاء فيهددون كل مَن يقرأ كتب السُنّة، وليس الذنب ذنبهم إنما هو ذنب المحرضين لهم.

أهل صنعاء وكتب السُنّة

. استشهد الشوكاني بفتنة محزنة من هذا النوع نشبت فيها معركة دامية بين بعض القبائل وبين سكان صنعاء لأن دعاة الفتنة يدفعون القبائل إلى التحرّش بأهل صنعاء وإلى إرهابهم حتى لا يجرؤ أحد منهم على مخالفة آل البيت.

هذه عيّنات من تاريخ اليمن، وهي ذات دلالة بالغة تدعم الرأي الذي نراه وهي أن حرية الاجتهاد إنما كانت صورة موجّهة أو محصورة في نطاق ضيق، وإن أهداف الإمامة السياسية أهداف مصونة لا تجرؤ على المساس بها حرية الاجتهاد المزعومة.

وجوب الخروج على الظلمة

وهذا مبدأ آخر من المبادىء البرّاقة التي حملها معهم دعاة الإمامة في اليمن، وهو مبدأ ربما كان أول مَن حملوه إلى اليمن صادقين في اعتناقه والإيمان به لأنهم كانوا ثائرين فعلاً على الخلافة العباسية والأموية.

ولكن هل طُبّق هذا المبدأ ضد إمام من الأئمة؟ هل كان يجرؤ أحد من أبناء الشعب على الخروج على إمام منهم ثم لا يصبح مارقاً باغياً عدواً لله سواء في نظر الدولة أم في نظر العلماء المستبدين؟.

تقسيمات

إذا كنا قد رأينا أن الإمامة قصمت ظهر الشعب وجعلت منه قسمين اثنين: أحدهما القسم الزيدي والآخر القسم الشافعي، فإن هناك تقسيمات وتجزئات أخرى متسلسلة مستحكمة أخذ بعضها بخناق بعض ومنحدرات كلها من هذه العلة الواحدة المزمنة وهي الحق الإلهي في حكم البشر.

نظر الشافعية

إن نظر الشافعية كما استعرضنا يرى أن الإمامة سلطة فريدة وأن الزيود جميعاً هم الذين يحكمون الشوافع ويتسلّطون عليهم ويستغلونهم.

ولكنا إذا جئنا إلى الزيود وجدناهم لا يرون هذا الرأي ولا يضعون أنفسهم في هذا الموضوع، بل إنهم يحسون إحساساً عنيفاً مريراً بأن طبقة معينة من العائلات الهاشمية هي التي تتمتع بحق الحكم الإلهي وتتميز به، وتتبادله بين الطامعين من رجالها جيلاً بعد جيل، وتستشعر الترفّع والتميّز على سائر أبناء الشعب.

بعض الهاشميين

ثم إذا ذهبنا إلى الهاشميين وجدنا فيهم البائسين والمنكوبين والمحرومين ووجدنا عائلة واحدة من الهاشميين وهي العائلة المالكة.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية إذا بحثنا مشاعر القوة الكبرى في الشعب وهم القبائل المزارعون منهم وغير المزارعين لوجدناهم يحملون شعوراً عاماً مريراً ضد سكان المدن جميعاً باعتبار أن المدنيين على زعمهم يشاركون الأئمة مغانم الحكم ومكاسبه ويتحملون جرائره وآثامه.

تجزئة الشعب اليمني المفروضة

تجزئة متلاحقة منبعثة كلها من شعور هذه الفئات الشعبية جميعها بأنها لا حق لها في حكم نفسها، وإنما هناك فئة مختارة متميزة تنعم أبد الدهر بهذا الحق، حق الإمامة المقدسة.

رأي العلاّمة المجتهد الشوكاني

ويرى العلاّمة الشوكاني أن الذنب ليس ذنب العامة فإنهم أتباع كل ناعق، إن قيل لهم هذا حق تعصبوا له، وإن قيل لهم هذا باطل تعصبوا ضده، وإنما الذنب ذنب الفقه الناقص الذي يرمي بالكفر كل مَن أراد أن يتحرر ويجتهد ويستقل برأيه.

هذه العصبية ليست دينية

ومن الطريف أن العلاّمة الشوكاني، العلاّمة الثاقب الرأي يرى أن هذه النزعة المتعصبة ليست دينية بل دنيوية، وإنما تلبس قناعاً دينياً وذلك بأن رأياً عاماً مصطنعاً منافقاً ينتشر بين الناس بأن الدفاع والتعصب لآل البيت، يفيد صاحبه في الغالب لا سيما إذا

تطاول المتعصب وهدّد العلماء الأحرار الذين تُسوّل لهم أنفسهم أن يجتهدوا في أمر يخالف آل البيت.

الغرض المال لا المذهب ولا الدّين

قال الشوكاني وقد اتفق أن انتشرت شائعات ضد العلاّمة محمد بن اسماعيل الأمير بأنه يخالف آل البيت، وبثّها المغرضون في بعض أوساط المتعصبين فاحتشدوا للثورة على الإمام بسبب ممالأته لمحمد بن اسماعيل الأمير وحاول الإمام إقناعهم فلم يقتنعوا إلا بعد أن قرر لهم عشرين ألف ريال سنوياً.

وقد عاش الشعب اليمني في الماضي مقتنعاً بأن الإمامة هبة ـ إلْهية لسلالة معينة مختارة فلم ينبعث لمقاومة هذه القدسية الرهيبة إلا عدد قليل من الأفذاذ أجهزت عليهم سيوف الأئمة وتخلصت منهم كمجرمين ومارقين وأعداء الله.

وعدا ذلك فقد كان الصراع الطويل المرير بين الأئمة أنفسهم بعضهم ضد بعض، في اليمن الأعلى، ثم بينهم وبين ملوك وحكام المناطق الأخرى.

أما الشعب فقد كان في معظم فترات التاريخ متفرّجاً يستعرض عضلات المتصارعين على حكمه والسيطرة عليه وكأنما هو أكوام وأنقاض من التماثيل الأثرية ـ تتنازعها أيدي اللصوص.

غير أن الشعب اليوم وقد تطوّر وناضل وثار وانبعثت على صيحته العروبة الصاحية الثائرة لا يمكن أن يكون غده كأمسه ولا

مستقبله كماضيه، ولن يكون دوره، منذ الآن، متفرّجاً فلا بد أن يحدد موقفه من كل مشكلة تتعلق به وأن يطالب بكل حق من حقوقه - ومن المستحيل أن يبقى مصدّقاً أن السماء قد وقع اختيارها في الأزل لعدد من العائلات تتناوب الحق الإلٰهي في الحكم عصراً بعد عصر.

لن تظل الأغلبية الشافعية من الشعب تقبل أن تحكم حكماً مذهبياً عسكرياً لا يعبر عن إرادتها ولا عن عقيدتها ولن تظل الزيدية مذعنة مستسلمة لحكم عنصري متعالٍ يريد أن يعيش أبد الدهر مدللاً من السماء والأرض، ولن يرضى الشعب أن يكون غده كأمسه؛ لا بد أن يأخذ دوره الكامل في الصراع وهذه سُنّة الحياة، فمَن أراده على شيء غير هذا فقد أخطأه التوفيق والرشد.

تساؤل

وسوف يتجه الصراع حول هذه المشكلة الرئيسية الكبرى، مشكلة الحق الإلٰهي في حكم الشعب.

لمن يكون هذا الحق ومَن الأولى به؟

هل يجوز أن تبقى في اليمن طائفة مذهبية تحكم طائفة أخرى إلى الأبد؟

مشكلة اليمن الكبرى

تلك هي مشكلة المستقبل الكبرى ستدور عليها معارك المستقبل وأحداثه وستنبعث منها مشاكل كثيرة أخرى وستستغلها

القوى العربية والدولية، شئنا ذلك أم لم نشأ، وستعرض اليمن بسببها لأخطار لا نهاية لها.

الحكم المحلي والقيادة الجماعية

فإذا أراد اليمنيون أن يجنّبوا بلادهم كل هذه الاحتمالات الرهيبة ويحتفظوا باستقلالها وسيادتها ووحدتها وبقاء اسمها على الخريطة فليشطبوا على هذه الخرافة التي تعطي لنفسها حقاً مقدساً في الحكم لفئة معينة من الناس وليتيحوا لكافة فئات الشعب فرصاً متساوية في الحكم؛ ذلك هو الحق الواضح المستقيم لا نذكره تعصباً لفريق من اليمنيين دون فريق وإنما نذكره حرصاً على وحدة الشعب بأسره وعلى حريته واستقلاله.

وخطر الإمامة على الهاشميين أيضاً

قد يُقال أو يتبادر إلى الأذهان لأول وهلة، أن إلغاء الإمامة المذهبية إنما يكون على حساب الهاشميين وضد مصلحتهم ولكن هذا رأي خاطىء فما من خطر يهدد الهاشميين في الحاضر والمستقبل كخطر الإمامة، فكل إمام ينهض في عائلة هاشمية واحدة ويلوّح له أن خصومه ومنافسيه إنما هم الرجال البارزون في العائلات الهاشمية الأخرى فيتجه أول ما يتجه للتخلص منهم قبل غيرهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الشعب كله يشعر أن العائلات الهاشمية كلها طبقة متعالية متميزة عن الشعب منفصلة عنه كأنها ليست من الشعب في شيء، بل وكأنها أجنبية

عنه دخيلة عليه فإذا كان التمييز في عصور الجهل مزية للسلالات الممتازة فإنه سيكون في المستقبل خطراً كبيراً على هذه السلالات وباعثاً على نفور الشعب منها وتعصبه ضدها ووصمه إياها بالرجعية.

وبالتالي ستصبح على مر الأجيال معزولة عن الشعب كأنها جالية فيه وليست جزءاً منه، وبعد ذلك لن توجد قوة على ظهر الأرض تستطيع أن تُخضع الشعب إلى الأبد لأقلية ضئيلة.

تلك هي النتيجة المحتومة المنتظرة لمضاعفات خطر الإمامة واحتفاظ السلالات الهاشمية بالتميّز على الشعب أما لو. أن العائلات الهاشمية فطنت إلى هذه الحقائق، وتنبّهت لدرء هذا الخطر وتزعّم أحرارها مقاومة الفكرة الإمامية، والمناداة بالجمهورية وإتاحة الفرصة المتساوية لكل أبناء الشعب كي يشتركوا في حق الحكم، فإنها بذلك تنقذ وحدة الوطن وتوفر على البلاد كثيراً من الويلات.

سلالات هاشمية في الأقطار العربية والإسلامية

إن في مصر وسائر أقطار العروبة والإسلام، سلالات هاشمية تحتفظ بأنسابها وتعتز بها ولكنها لا تتخذ من هذه الأنساب وسائل للحكم والتميز فاستطاعت بسبب ذلك أن تندمج في الشعب وتصبح عنصراً أصيلاً من عناصره، وتنجب أبطالاً من بينها يرتفعون إلى أعلى مراتب المجتمع، بكفاءاتهم الشخصية لا

بأنسابهم ولا أحسابهم، وبذلك لا يجد هؤلاء الأفذاذ مَن يطعن في مكانتهم أو يحاول زحزحتهم عنها.

وكم عرفنا من أبطال عظام وثبوا إلى مستوى الزعامة السياسية والعلمية وتمتعوا بشعبية ساحقة، فإذا بحثنا عن نسبهم وجدناهم من السلالة النبوية الطاهرة ولكن نسبهم هذا لم يكن علة لسيادتهم في المجتمع وإنما سادوا بكفاءاتهم وبطولتهم.

بل إنه من المؤكد أن لو تمسكوا بصفة الأنساب وتميزوا بها على الشعوب لكان من العسير عليهم أن ينالوا ما نالوه.

سلالات فارسية وحبشية

ولا ينكر أحد أنه كان في اليمن منذ قرون بقايا من الفرس وسلالات ممتازة تختلف من عهد الاحتلال الفارسي، وقد ظلت عدة قرون محتفظة بتميزها على المجتمع اليمني فأثارت حفيظة الشعب وحملته على التعصب ضدها وعلى النفور منها، وقد بقي الحمقى من أبناء هذه السلالات يفاخرون العرب في بلادهم اليمانية ويباهون عليهم حتى عزلوا أنفسهم أخيراً عن الشعب وشعروا بالوحشة والانفراد والاختناق.

وأخيراً اضطروا أن يتخلوا عن عنعناتهم الساسانية الشاهانية ويندمجوا في الشعب ويصبحوا جزءاً منه.

وها نحن الآن لا نجد أحداً من اليمانيين يشير إلى هذه السلالات أو يعرف عنها شيئاً؛ ونحن لا نستبعد، إذا ما تحقق

مبدأ الحكم للشعب، أن يأتي اليوم الذي يصبح فيه أي نابغة من هذه العناصر المندمجة في الشعب على رأس الحكومة الشعبية تطبيقاً لمبدأ تكافؤ الفرص. فإذا كان هذا هو الشأن مع بقايا أبناء الفرس والحبشة المحتلين فكيف يكون الشأن مع سلالات هاشمية عربية في عصر القومية العربية التي تسير بالعرب نحو الوحدة الكاملة والدولة العربية الواحدة طال الدهر أم قصر؟

لا عصبية

وإن من الخطأ الكبير والمنطق المقلوب أن يُظن بالذين ينادون بالحكم الشعبي أنهم يثيرون عصبية عنصرية - فالواقع أنهم على العكس من ذلك ينادون بوحدة الشعب، الوحدة الصحيحة السليمة التي تستند إلى ضمانات بقائها في المستقبل دون عواصف.

إن الذين يؤمنون بالعنصرية هم الذين يدافعون عن الفوارق والامتيازات التي تفصل بينهم وبين سائر فئات الشعب وطبقاته، ويصرّون على أن يتميزوا على الشعب وينفردوا عنه بحقوق سياسية واجتماعية كأنهم لا يقبلون أن يكونوا في عداد أبنائه ولا في مستوى إنساني كمستوى إنسانيته.

هذه النزعة المتعالية هي النزعة العنصرية وهي أخطر شيء على الهاشميين وعلى مستقبلهم سواء عاشوا في اليمن أو في أي قطر عربي آخر.

فما من شعب من شعوب العرب يقبل تأليه بعض سلالات منه أو تميزها عليه بأي حق من الحقوق.

ثورة مصر ليست عنصرية

إن ثورة مصر ليست ثورة عنصرية لأن شعب مصر أبعد الشعوب قاطبة عن عصبية العرق ومع ذلك فإنها أنكرت أول ما أنكرت أن توجد في مصر طبقة مميزة على الشعب كالباشوات والإقطاعيين.

وحينما نفذت برامجها لم تلغ وجود الباشوات كمصريين وإنما ألغت الفوارق والامتيازات التي كانت ترفعهم فوق مستوى الشعب.

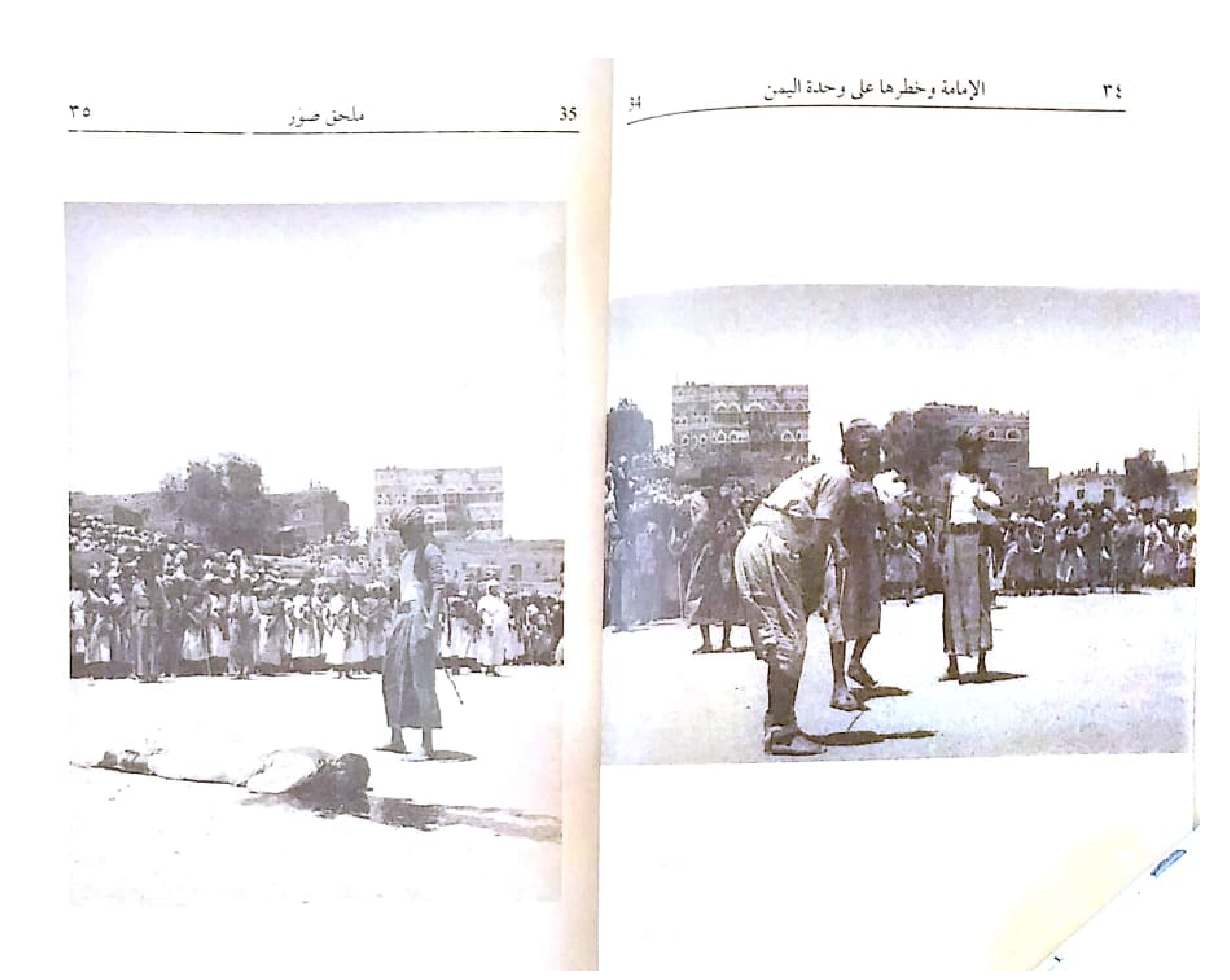
وفي ظن كل عربي أن الثورة أحسنت إلى مستقبل هؤلاء وجنّبتهم أحقاد الشعب.

على أنهم كانوا يستطيعون أن يحسنوا إلى أنفسهم أكثر من ذلك لو أنهم سبقوا الثورة وحطّموا بأيديهم تلك الفوارق التي كانت تفصل بينهم وبين الشعب.

ملحق الصور











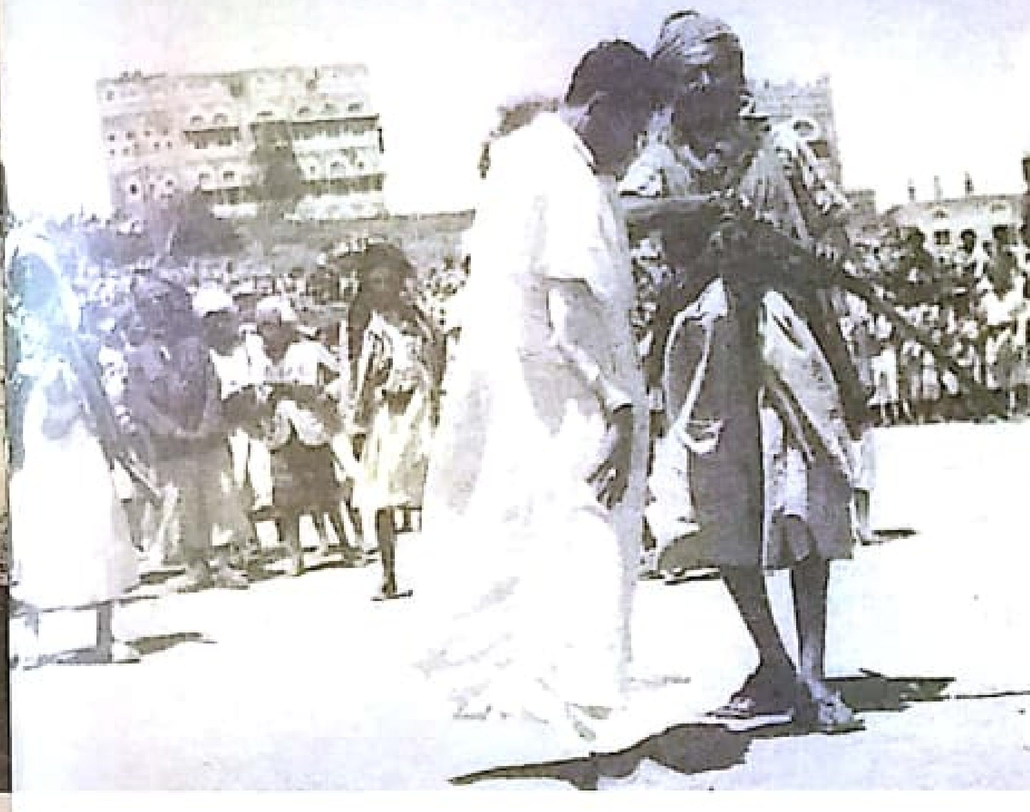




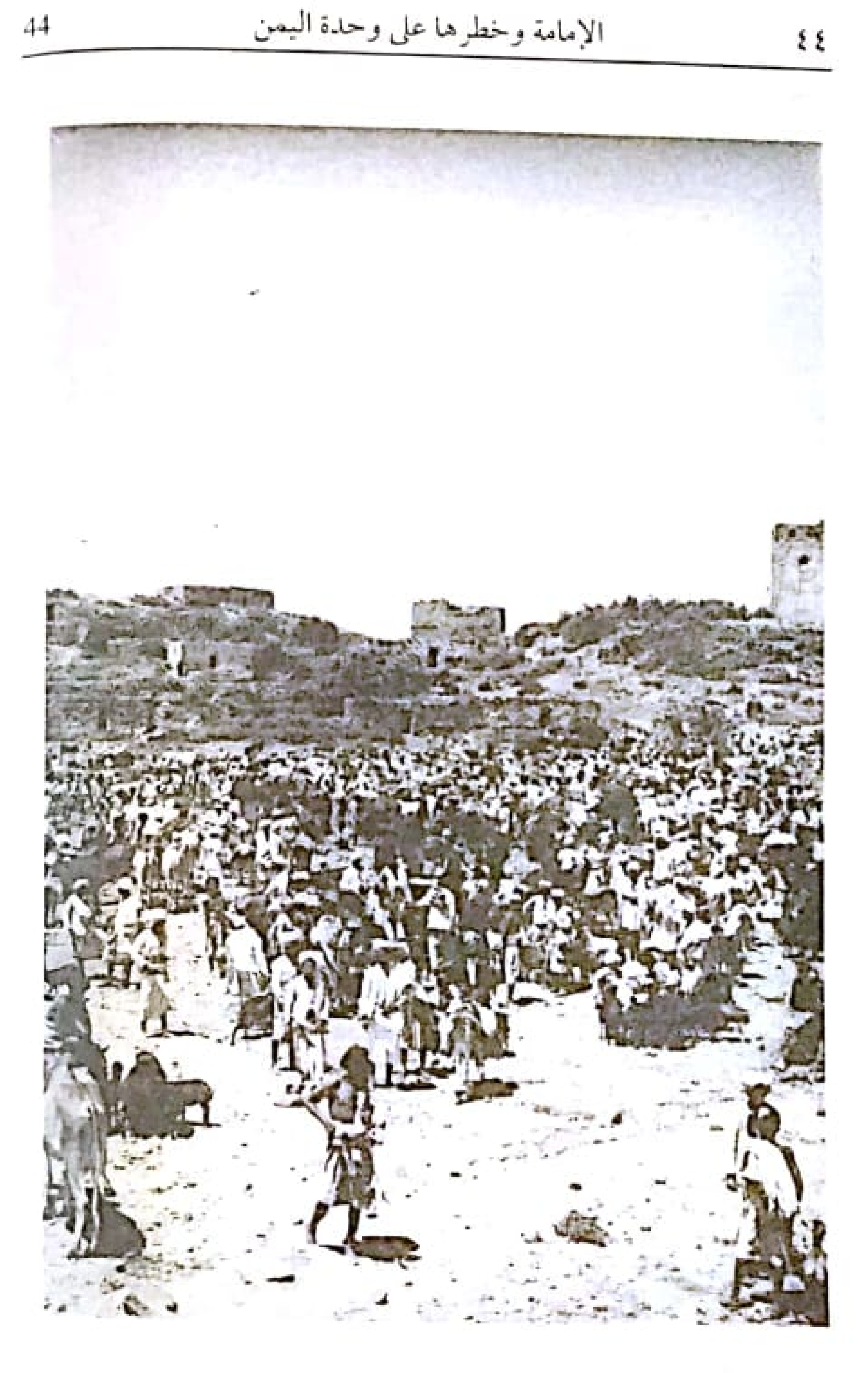




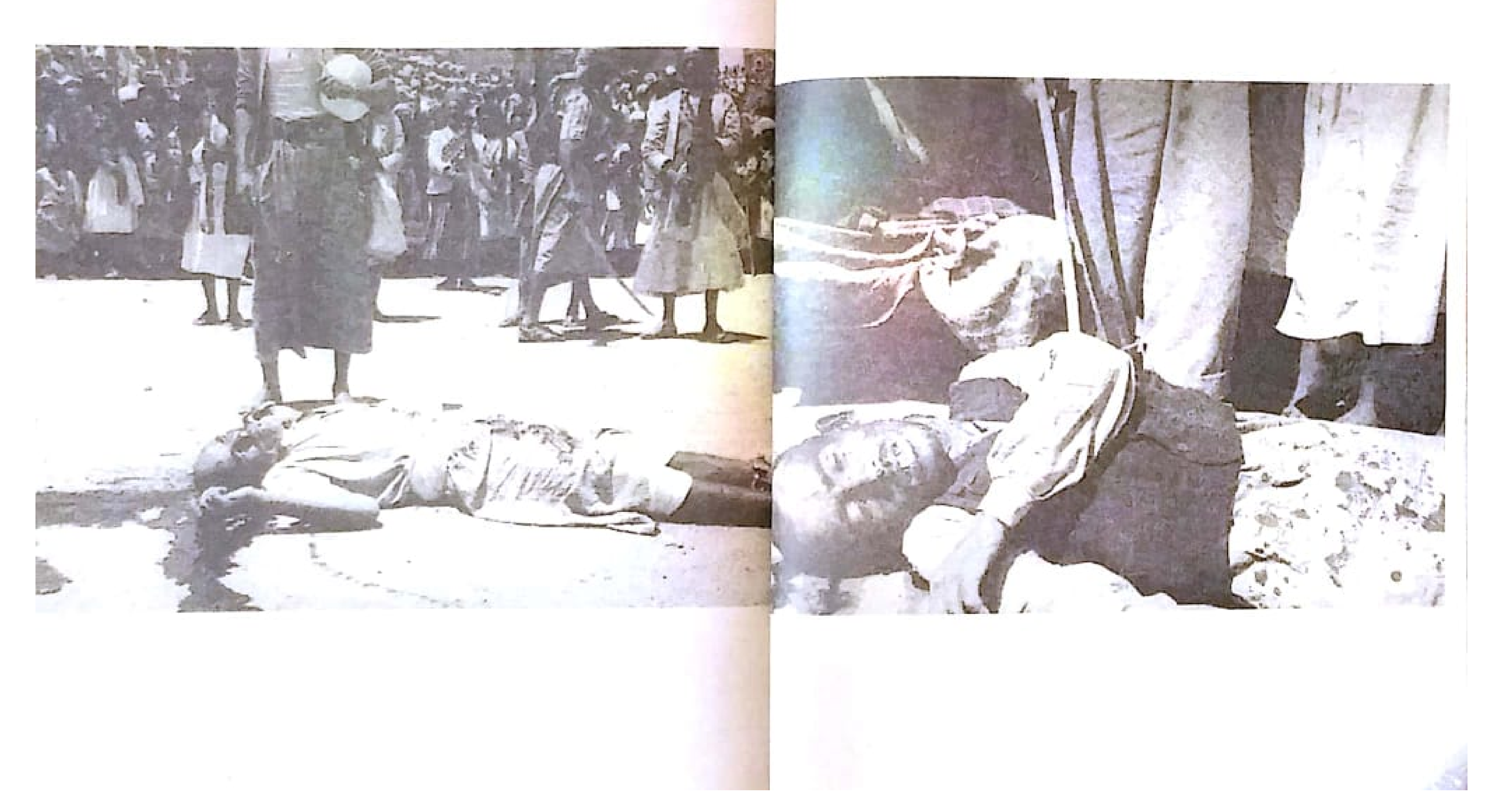


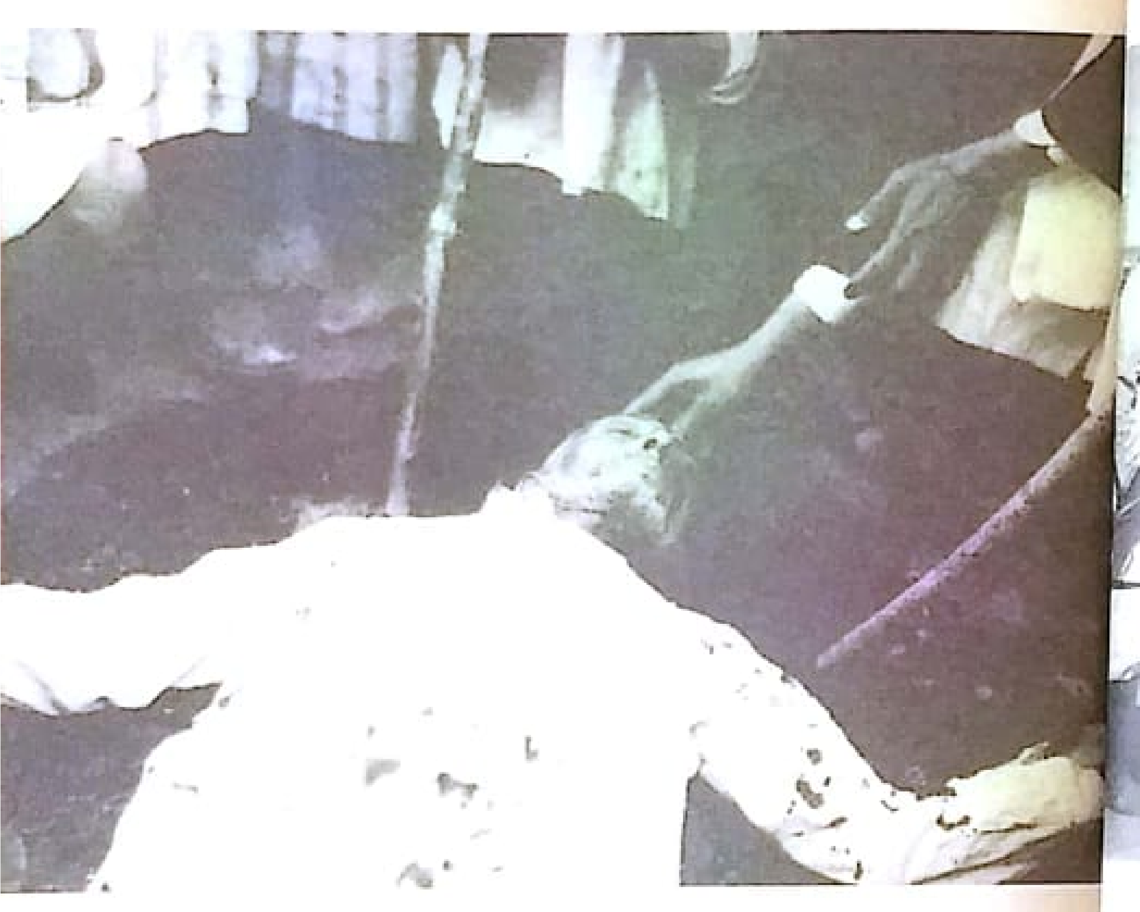




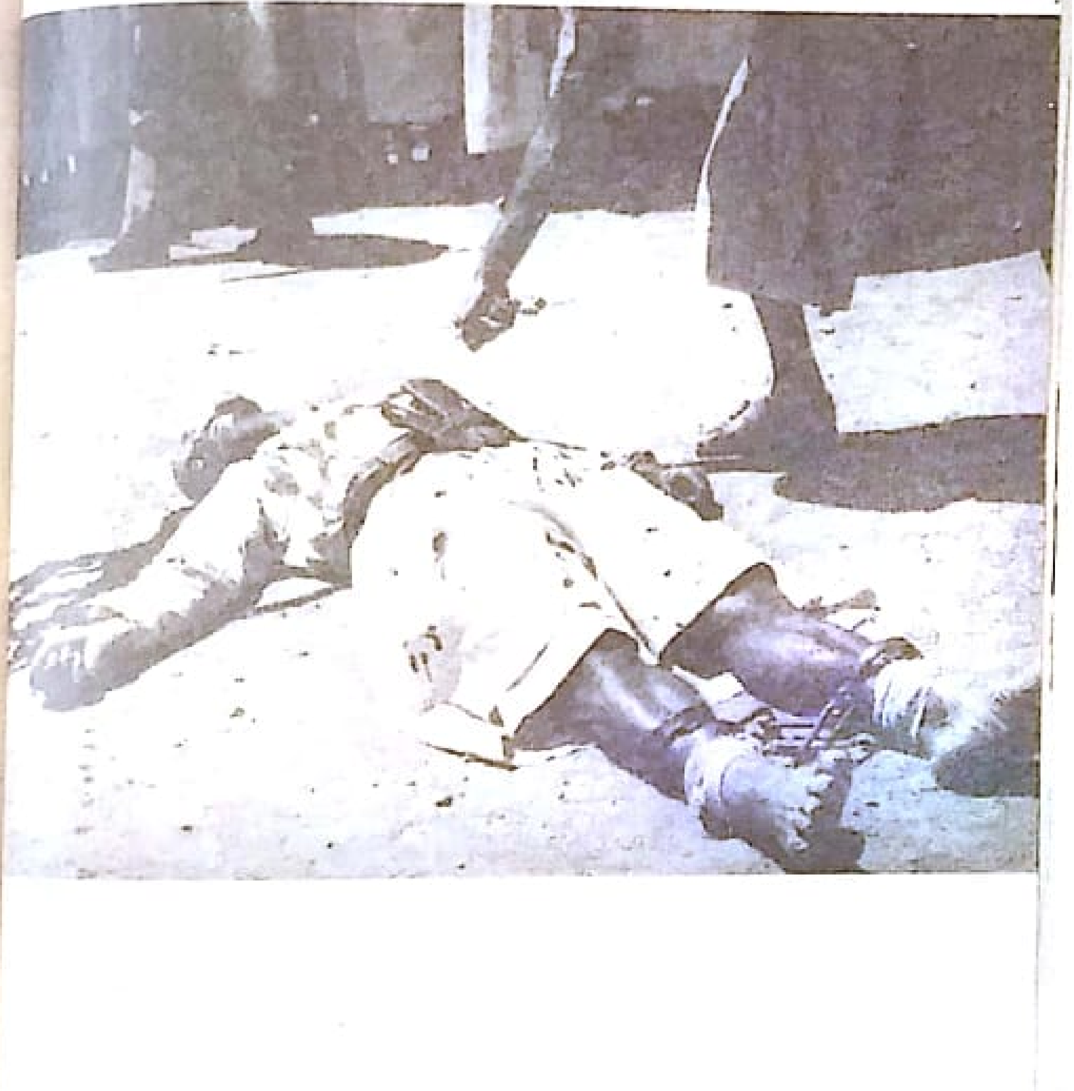




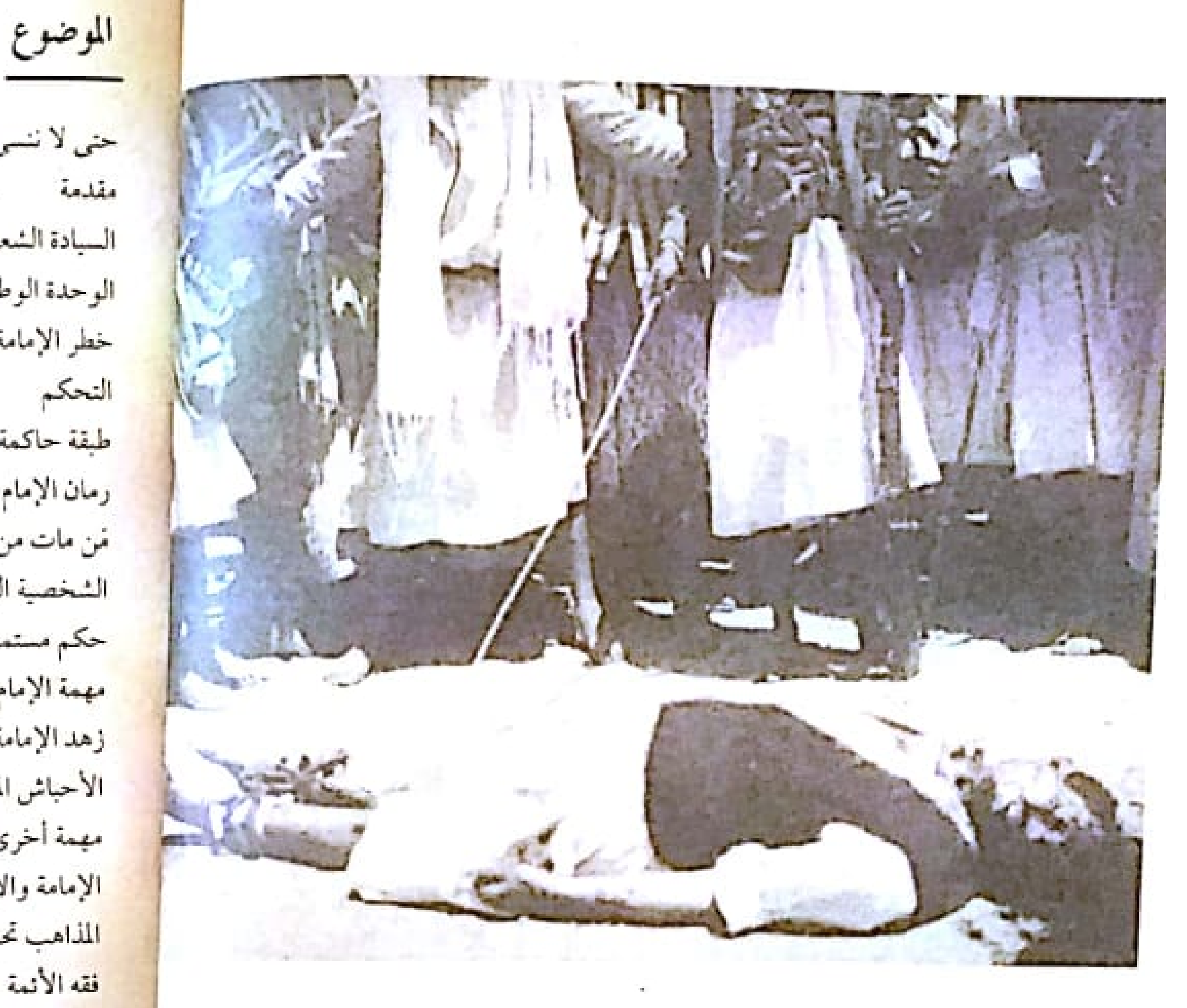












الفهرس

الموضوع — **الصفحة**

الخدعة الكبرى
في السياسة العربية

*****

من أحرار اليمن.. إلى كل أحرار العرب

* إلى الذين يهمهم تحرير اليمن من الاستعمار والرجعية . .
* إلى الذين يحرصون على فهم السياسة التي تحكم الشعب العربي في اليمن . .
* إلى الذين ينشدون الحقائق مجردة عن التضليل والخداع . . .

إلى هؤلاء جميعاً . . .

يقدم الاتحاد اليمني هذه الحقائق بصراحة وصدق وأمانة وإخلاص .

موقف ثابت

منذ قامت حركة الأحرار اليمانيين عام ١٩٤٤ ، وهم ينادون بسياسة التعاون الشامل مع البلاد العربية ، ويعملون من أجل الوحدة العربية . . . وكانوا عاملاً فعالاً في دفع اليمن إلى الدخول في الجامعة العربية ، بعد أن تبيّن للرأي العام العربي تردد الحكومة اليمنية وإحجامها عن هذه الخطوة ، لولا الضغط الشعبي الذي تولى الأحرار قيادته يومئذ .

وحينما قامت الثورة اليمنية الدستورية عام ١٩٤٨ وحاربها ملوك العرب في ذلك الحين وأذنابهم وصحافتهم وأجهزة دعايتهم ، لم يهتز إيمان أحرار اليمن بالعروبة ، ولا بالوحدة

العربية ، بل أقدموا على أول خطوة عربية من نوعها ، وهي إشراك بعض أحرار العرب في حكومة الثورة واستدعاء الجامعة العربية للإشراف على تأليف حكومة شعبية يرضاها الشعب . . بل ذهب الأحرار اليمنيون إلى أبعد من ذلك ، وهو إعلان استعدادهم لقبول حكم عربي ، تشرف عليه الجامعة العربية .

وكانت هذه النزعة العربية الثورية ، من أهم الأسباب ، التي أطاحت بحكومة الأحرار اليمنيين ، وألبت عليهم قوى الاستعمار من الملوك وغير الملوك ، وانتقمت منهم شر انتقام ، واستعادت نظام الحكم الرجعي ، وحرضته على ذبح الأحرار والتنكيل بهم ، واللعب برؤوسهم في الشوارع ! . .

ولما ترددت حكومة اليمن في ذبح القائد العراقي الحر الرئيس جمال جميل تهيباً لموقف العراق ، بعثت حكومة الخيانة في العراق إلى حكومة اليمن تحرضها وتشجعها على إعدام البطل العراقي المرحوم . . وانتكست حركة الشعب اليمني بعد مأساته المروعة ، واستأنفت الرجعية اليمنية حكمها لليمن زهاء خمس سنوات ، لم تقدم على أية خطوة للإصلاح ، ولم يدفعها ملوك العرب الذين خلقوها وآزروها . . على عمل أي شيء من أجل الشعب بل ظلوا يسخرون دعاياتهم للإشادة بانتصار حكّام اليمن على الشعب ، وتمجيد بطولاتهم التي أظهروها أثناء مقاومتهم لحركة الشعب .

ورغم كل ذلك ، فإن أحرار اليمن ومن ورائهم شعب اليمن كله . . ظلوا متمسكين بمبدأ التعلق بالعرب والعروبة ، مؤمنين بأن

ما أصاب اليمن من نكبات وويلات، إنما كان المسؤول عنه تآمر الملوك والحكام الخونة في البلاد العربية. وإن أحرار العرب جميعاً، ومن ورائهم الشعب العربي كله.. لا بد أنهم يشاركون الشعب العربي اليمني في شعوره وأمانيه التحررية.

ولذلك، فإنه ما كادت الثورة العربية الكبرى، تنطلق في ٢٣ يوليو، حتى انطلقت حركة الشعب العربي في اليمن، مرة أخرى.. تزحف نحو أهدافها القومية التحررية، وحمل الأحرار اليمنيون لواء الدعوة العربية الجديدة، في ربوع اليمن، وظلوا يكافحون في سبيل هذه الدعوة، حتى قامت في اليمن ثورة ١٩٥٥، فاستنجد الأحرار بالعرب مرة أخرى، يطلبون منهم المساهمة في تقرير مصير اليمن، والأخذ بيد الشعب لإقامة حكم صالح، متحرر من الرجعية والنفوذ الأجنبي.

وتظاهر حكّام اليمن يومئذ، بأنهم قد ثابوا إلى رشدهم، وآمنوا بشعبهم، وأعلنوا قبل ذلك وبعد ذلك.. التزامهم بقيام حكم دستوري في البلاد، ينفذونه فوراً.

ولكن هذه الوعود والعهود، لم يمضِ عليها إلا وقت قصير حتى ذهبت أدراج الرياح!.. وعادت الحركة الشعبية في جريدة "صوت اليمن" تطالب بوضع حد للحكم الرجعي، كما تطالب بسياسة عربية تحريرية.

وأحست الحكومة اليمنية بالضغط الشعبي مرة أخرى، فأقدمت على توقيع ميثاق جدة، فرحّب أحرار اليمن بهذه الخطوة

وشجعوها، ولكنهم طالبوا بتنفيذ الميثاق، غير أن هذه المطالبة أخذت شكلاً رفيقاً، نظراً لأن حكّام اليمن، قد كسبوا حصانة بانتهاجهم أسلوب التظاهر بالسياسة العربية التحررية...

ومرّ وقت طويل، من دون أن ينفذ حرف واحد من ميثاق جدّة، فاستأنفت الحركة اليمنية كفاحها من أجل سياسة عربية تحررية صادقة.

وأعلن الأحرار أن الإصلاح لا يتجزأ، وأن أي ميثاق تعاون بين اليمن وأي بلد عربي متحرر، سيظل حبراً على ورق، ما دامت الأوضاع الرجعية هي السائدة والمتحكمة في مصير اليمن، وما دام أنه لا يوجد بها جهاز حكومي سليم هناك!..

وما كادت تلوح بوادر الوحدة بين مصر وسوريا... وتظهر في الأفق، حتى هبّ الأحرار اليمنيون يطالبون باشتراك اليمن في أي مشروع للوحدة أو الاتحاد، يتم بين مصر وسوريا، وتجاوب الشعب العربي اليمني كله مع الأحرار يطالب بالوحدة، ويتطلع إليها، كأمل جديد، لخلاصه من الشقاء الطويل.

وأيقن حكّام اليمن أن لا محيص لهم من مجاراة هذه الرغبة الشعبية الجارفة، فأعلنوا رغبتهم في الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة، ووقعوا ميثاق " الدول العربية المتحدة" ولكن ذلك لم يكن منهم إلا مجرد مظاهرة ومناورة، لتخدير الشعب في اليمن، وتجميد حركته، ثم تضليل الرأي العام في البلاد العربية كلها، وكسب مزيد من الوقت تتنفس فيه الرجعية الحاكمة، وتسرح

وتمرح، آمنة في ظل العطف العربي، ذي النية الطيبة، والنظر البريء.

وليس أدل على ذلك من أن اليمن، بعد التوقيع على ميثاق "الدول العربية المتحدة" ظلت زهاء ستة أشهر، لم تتقدم خطوة واحدة، نحو تنفيذ الاتحاد، ولم تقدم أي برهان عملي، على أنها جادة ومصممة على أي سياسة عربية عملية.. وقد كان يشجع الحكّام الرجعيين في اليمن على المماطلة والتسويف، وسياسة كسب الوقت - أن العروبة المتحررة منهمكة في معركة مستمرة مع الاستعمار وأذنابه وعملائه لا تستطيع أثناءها أن تلوم حكام اليمن، أو تطالبهم بالتنفيذ لأي عهد أو ميثاق من عهودهم ومواثيقهم الكثيرة، التي أبرموها.

والرجعية الحاكمة في اليمن، كانت في خلال الصراع المر بين أحرار العرب، وحكومات العملاء تتمتع بمركز ممتاز، لأنها تكسب سمعة تحررية بدون تحرر، وكان موقفها موقف المساوم لقادة العرب الأحرار، فإما أن يرضوا بموقفها السلبي، أو تنحاز إلى حلف بغداد.

وظل أحرار اليمن في تلك الفترة الحرجة.. صامتين متحرين عن القيام بأي عمل مثير، حتى لا يحرجوا أحرار العرب، ولا يحدثوا ارتباكاً في صفهم أثناء المعركة المريرة التي يخوضونها، ضد حكومات العملاء المتألبة ضدهم.

ولكن الثورة العربية في العراق.. زعزعت مركز التوازن، الذي كانت تتمتع به الرجعية الحاكمة في اليمن، وأفلس الحكّام

اليمنيون من عنصر المساومة والتهديد، فلم يبق هناك في البلاد العربية جانب يستطيعون أن يهددوا بالانضمام إليه.

ومن جهة أخرى، فإن أحرار اليمن تخلصوا من عنصر الحرج، الذي كان يلجم ألسنهم، ويقيّد خطاهم، ويفرض عليهم التضحية في سبيل المصلحة العربية العليا. لقد أصبحت الحركة العربية التحررية أقوى شأناً، وأصلب عوداً من أن يوهنها تهديد أو انحراف يواجهها به أي حاكم رجعي.. وأصبحت الكلمة العليا للشعب العربي في كل مكان، بعد أن سقطت القاعدة الكبرى للطغاة الرجعيين في بغداد.

وتلك كلها عوامل رئيسية، دفعت الشعب اليمني، إلى المطالبة، بتنفيذ الاتحاد والتنديد بسياسة المماطلة والتسويف.. وفي الوقت نفسه، كان حكّام اليمن قد أدركوا أن لا بد من عمل أي شيء، لإنقاذ موقفهم المائع المتردد المكشوف، فاستأنفوا القيام بخطوة جديدة، وأعلنوا من جديد إيمانهم بالاتحاد، ورغبتهم في تنفيذه، وجاء وزراء الجانب اليمني في مجلس الاتحاد، كأنهم قد جعلوا هذا الاتحاد حقيقة واقعة، لا مجال فيها للشك.

وعلى الفور تعيّن الوزراء في الجانب العربي، وانعقدت الجلسة الافتتاحية لمجلس "الدول العربية المتحدة".

موقف أحرار اليمن بعد تعيين أعضاء الاتحاد

إذا أردنا أن نعرف موقف أحرار اليمن في هذه المرحلة من حياة العرب.. فإنه من الأفضل قبل ذلك، أن نعرف الاعتبارات الجديدة التي تكتنف هذا الموقف، حتى نستطيع أن نتقدم ونتطور بنظرياتنا وأفكارنا، وحتى لا نتجمد في جو الماضي، ونحن نعيش في مستقبل، يختلف عنه كل الاختلاف.

وهذه الاعتبارات الجديدة:

١- إن العروبة المتحررة ليست اليوم في محنة، فقد انطلقت طاقاتها الكبرى، وتحطّمت معاقل الطغاة والعملاء، الذين كانوا يحكمون الشعب العربي، على غير إرادته، وأصبحت الكلمة بيد الشعب في كل مكان.. فلا يستطيع بعد اليوم حاكم محطم منهار - أن يهدد ببيع الشعب إلى حلف كحلف بغداد، بعد أن ذاق أقطاب ذلك الحلف مصيرهم الرهيب.

وبالتالي، ليس لأي شعب في هذه المرحلة أي مبرر في صبره واستكانته، فكل نضال شعبي يستهدف الوحدة، والتحرر، سيجد من حوله أمواج التيار تدفعه إلى أهدافه المقدسّة، آمناً من العثار والانتكاس، ولم يعد هناك مكان لنظرية المرحلة الذاهبة التي كانت تحرّض على مداراة بعض الحكّام المترددين، خوفاً من أن ينحرفوا.

٢- لقد برهن حكّام اليمن في تاريخهم الطويل، الذي أوجزناه على أنهم يحسنون سياسة اللف والدوران، ومناورة المطل والتسويف، وكسب الوقت، كما برهنوا على براعة في تغطية مواقفهم والتستر على الواقع المفجع الذي يعيش فيه شعبهم، واستطاعوا بهذه البراعة أن يضعوا ستاراً برّاقاً يحجب واقع اليمن ويجعلها في معزل تام عن سائر أقطار العروبة المتحررة، حتى وهي مرتبطة معهم في ميثاق اتحاد عتيد.

واستطاعت هذه البراعة أن تخدّر الجماهير الطيبة من أحرار العرب وأن تستدرجها من حيث لا تشعر إلى نوع من المؤازرة والتأييد لأقسى ضرب من ضروب الرجعية الحاكمة في البلاد العربية، والتي تُعتبر وصمة في تاريخ العرب أجمعين.

وكل الدلائل الآن - ونرجو أن نكون مخطئين في هذا التقدير - تدل على أن حكّام اليمن، مستمرون في سياسة الدهاء والبراعة، وأنهم سيوفّقون إلى مزيد من التغطية والتستر، وإلى مزيد من التأييد العربي البريء الطيّب.

وإذا تُركوا وحدهم في الموقف، فسوف يجدون لكل مشروع عربي قبراً جميلاً عاطراً من المغالطات والمعاذير، يدفنونه فيه، ثم لا يجدون حولهم في البلاد العربية غير التهليل والتكبير.

وإزاء هذه الحقيقة الناصعة، فإن الأحرا اليمنين، يتحملون إزاء العروبة المتحررة، عبئاً ضخماً، لا بد من الاضطلاع به حتى يُنيروا الطريق لقادة العرب الأحرار، وحتى لا يدعوا الرجعية الحاكمة وحدها في الموقف، تتصرف فيه كيفما تشاء.

٣- ظل الشعب العربي في اليمن، منذ توقيع ميثاق جدّة، وهو يتقلب في ضروب من الانتكاسات في آماله، يصفّق للحكّام شهراً، ثم يبكي منهم شهراً، ويُقبل على مرحلة من مراحل الأمل، ثم إذا به يُفجع فيها، حينما تتحول إلى مأساة.

ولذلك، فإننا ونحن على صِلَة دائمة بالشعب نرى أنه عند سفر الوزراء اليمنيين إلى القاهرة بقصد افتتاح المجلس التنفيذي للاتحاد، لم يكن لهذه الخطوة، أي صدى من الحماس في أوساط الشعب العربي في اليمن، كما كان للخطوات السابقة. والسبب في ذلك، واضح فيما ذكرناه، من أن الشعب قد تقلّب في ضروب من الأمل واليأس، وقاسى كثيراً من الصدمات في أحلامه وآماله، ومرّ عليه قدر من التجارب، جعله أكثر وعياً للواقع، وتعلقاً بالحقائق، وكفراً واستخفافاً بسياسة التصريحات الطنّانة والتوقيعات على العهود والمواثيق.

والشعب اليوم يطالب الأحرار اليمانيين، أن لا يخدعوه بالتصفيق مع المصفقين، ولا بالهتاف مع الهاتفين، كما يناشدهم أن يكونوا عيونه التي تُبصر، وقلوبه التي تخفق، وعقوله وتجاربه التي تناقش وتناضل وتتشكك، ولا ترضى من من الحكّام أن يقولوا: سنفعل، بل فعلنا، ولا تقبل من الرجعية أن ترقع ثوبها المهلهل، فإن عليها أن تخلع هذا الثوب نهائياً، وتطلع على الدنيا بثوب جديد.

٤- اليمن تعيش وراء ستار حديدي، منذ نصف قرن فهي مجهولة للرأي العام العربي جهلاً تاماً، وفيها مأساة مروعة، تستهلك حياتها، وهي مأساة من نوع غريب على الوعي العربي، بل وعلى العصر الحديث كله.

فإذا تكلّم أهلها عن هذه المأساة، لم يجدوا صدى، ولا تجاوباً كافياً في جماهير البلاد العربية، لأن العرب لا يفهمون لغة هذه المأساة، ولا معانيها، فليس عندهم لمأساة الشعوب إلا مقياس واحد، هو الاستعمار. وقد جعلهم هذا يعتنقون نظرية جانبية ساذجة، وهي أن أي شعب لا يعاني نكبة الاستعمار، فهو شعب لا يعاني أي نكبة.. وأي حاكم لا ترتفع الأصوات بإعلان تمالئه مع الاستعمار فهو حاكم طيب متحرر!.

إن هذا الوعي الناقص الساذج في البلاد العربية، قد وضع على عاتق أحرار اليمن رسالة فذة، عسيرة الحمل والأداء.. وهي خلق نوع من الثقافة والوعي والحساسية. لم تكن تحتاج إليها إلا الأجيال التي عاشت في القرون الوسطى والتي كانت تعاني المأساة نفسها، التي تعانيها اليمن اليوم في القرن العشرين، وفي عصر العروبة المتحررة!..

إن الذي أحرق "روما" لم يكن حاكماً ممالئاً للاستعمار، ولكنه في وعي أهل روما الذين أحرقهم، أقسى وأطغى من ألف حسين، وألف نوري السعيد. ولكن الشعوب التي كانت تعاني طغياناً كطغيان (نيرون) لم يعد لها في الدنيا وجود، وبالتالي لم يعد

لقضيتها صدى في هذا العالم.. بل وليس في ثقافة الشعوب الحديثة ما يثيرها ويرهف إحساسها ويحركها إلى الغضب على نيرون وأمثال نيرون من خرافات التاريخ.

والثقافة السياسية.. وطنية كانت أو عالمية – إنما هي مجموعة من التقاليد التي تواضعت عليها الشعوب، ودربت على الإحساس بها تدريباً ثابتاً منظّماً. ومشكلة الشعب اليمني إنه لا يوجد في عالمه شعب مدرّب على الإحساس بمأساته، والتفاعل مع فظائعها وآلامها.. وهي تشبه مأساة أهل النار. فرغم تصويرها الرائع في القرآن الكريم، فإن البشر لا يتجاوبون معها، لأن أعصابهم لم تدرب على الإحساس بها عملياً.

إن طبيعة القضية اليمنية هذه.. تيسر مهمة الحكّام، وتعسر مهمة الأحرار. فالحكّام يستطيعون أن ينفوا عن أنفسهم عند أحرار العرب، تهمة الخيانات التقليدية، المتعارف عليها في بلاد العرب. إنهم قد لا يشتركون في أحلاف، ولا يقبلون التعاون التقليدي مع الاستعمار، وهذه غاية الغايات في السياسة العربية الراهنة.

ومن الصعب على الأحرار أن يثبتوا للعالم العربي جغرافياً.. أن اليمن من الناحية العملية تُعتبر في حكم منطقة من مناطق المريخ، في تمردها على الصلة بالأرض، لا لأسباب عربية تحررية، بل لاستحالة التجاوب بين حكّام المريخ وحكّام الاستعمار الغربي.

ومن جهة أخرى، فمن السهل على حاكم من حكّام المريخ، يلبس لباس أهل الأرض، وينطق لغتهم، ويردد شعاراتهم المتحررة.. أن يقنعهم بأنه متحرر ما داموا لا يطالبونه بخلق صلة عملية بين المريخ وبين الأرض، يكتشفون بها واقع التحرر في المريخ.

مرة أخرى، إن مهمة الأحرار عسيرة أي عسر، فلهذا نلجأ في تبياننا إلى الأساليب الشعرية وإلى الرموز والأمثال.. نتحايل بها على العقل العربي، الذي يفكر بعيداً عنا قروناً وقروناً!..

ولعله من الممكن أن نستغل هذا التشبيه إلى أكثر من ذلك..

إن حكّام المريخ مثلاً، لا يمنعون المظاهرات في شعبهم، لا لأنهم يمنحون الشعب الحرية بل لأنهم لم يتيحوا له فرصة الوصول إلى مرحلة البشرية التي تتظاهر.

وحكّام المريخ لا يحاكمون فتاة "كنادية"، ويهددونها بالإعدام، لا لأنهم عادلون، بل لأنهم يقتلون بلا محاكمات ولا إعلان ولا ضجة.

وحكّام المريخ يستطيعون أن يعلنوا للعالم عن مشاريع عمرانية، دونها عمران أرقى دول العالم، ويستطيعون أن يتحدثوا بأكبر الأكاذيب وأضخمها، وتقول الصحافة العربية لهم آمين!.. لأنهم مكرة دهاة يعلمون أن أهل الأرض لا يمكن أن يصلوا إلى المريخ، ومن ثم لا يمكن أن يكتشفوا أكاذيبهم!..

وهذا هو السر في أنهم صمموا أولاً، على أن يكون مقر الاتحاد في الحديدة، ثم صمموا أخيراً على أن يكون المقر منفياً في القاهرة، تيسيراً لمهمة الكذب والتزوير، والاحتفاظ بستار حديدي على مأساة الشعب.

المعارضة البنّاءة

تلك هي الاعتبارات الجديدة، التي تكتنف القضية اليمنية، وبناء على هذه الاعتبارات يجد الأحرار أنفسهم مُلزمين بالوقوف موقف المعارضة الإيجابية البنّاءة اليقظة، وأن تكون هذه المعارضة قائمة على أساس كشف التعلات الزائفة، التي قد يتذرع بها الحكّام اليمنيون، لتعويض تنفيذ ميثاق الاتحاد، أو تأجيل خطواته، أو تجزئة كيانه الكلي، بحيث لا يخرج إلا ممزقاً إرباً إرباً، كما تهوى نزوات الرجعية الحاكمة.

ونظرية الأحرار أن الإصلاح لا يتجزأ، وأن إنشاء بنك مركزي مثلاً، لا يعني اتحاداً ولا يعني سياسة تحررية، ولا يستحق التأييد، لأنه مجرد تخدير للرأي العام، بل ومجرد كلام في كلام!..

والأحرار يرون أنه لا يمكن أن تنجح في اليمن إلا نهضة شاملة، يحققها تنفيذ شامل لميثاق الدول العربية المتحدة دفعة واحدة، على أن يتجاوب مع هذا الميثاق حكم شعبي يمني منظّم، يعبّر عن إرادة الشعب، ويستطيع تنفيذ القرارات.

والجمهورية العربية المتحدة، وهي في أوج انتصاراتها، وفي عنفوان مجدها وشعبيتها لا ننتظر منها في هذه المرحلة من تاريخها

أن تقبل أو ترضى ما لا يقبله ولا يرضاه الشعب العربي اليمني، الذي أولاها حبه وتأييده وتقديسه.

قد تستطيع الرجعية الحاكمة في غير هذه الظروف العربية الراهنة... أن تمارس دلالها على العروبة المتحررة، فتتمنع وتتسكع، وتكر وتفر، وتقبل وتدبر، تعطيلاً لعمل التاريخ، وتعويقاً لحركة التطور، وكسباً لأنفاس معدودة تملأ رئتيها ولو مرة واحدة.. من هواء القرون الوسطى.

بيد أن الشعب العربي الثائر المتطور المنتصر، لا يسمح لأي حاكم أن يمارس دلاله، لتعويق حركة الثورة اليوم، وهي في عنفوانها، ما دام هذا الحاكم يعلن للناس بأنه يسير في ركب التحرر الزاحف، لأن عجلة واحدة في هذا الركب، قد تعوق الركب كله، وقد تسيء إلى سمعته، وقد تفوت عليه فرصاً لا تعوّض.

إن الشعب الغربي في اليمن، ليربأ بالأمة العربية المتحررة وقادتها الأحرار أن يستكثروا من حكّام اليمن دخولهم في ميثاق الدول العربية المتحدة، وأن يحملهم هذا على تدليل هؤلاء الحكّام، والرضى منهم بالتنفيذ المبتور.

إن هؤلاء الحكّام يعرفون شعبهم العربي في اليمن، ويعرفون قوة مراسه وشدة شكيمته، وفورة اندفاعه نحو الحركة العربية، ونحو التأييد المطلق لحبيبه وزعيمه جمال. وهم قد أذعنوا لهذا الشعب خوفاً من ثورته، ولم يقدموا له هذا الاتحاد صدقة ولا

تفضلاً وإنما ساروا في هذه الطريق مدفوعين مضطرين، وهم يعلمون أنهم عاجزون عن التوقف، فضلاً عن الرجوع إلى الوراء، لأن الشعب أقوى منهم ألف مرة.

فكل مَن يأتي إلى قادة العرب الأحرار، فيطالبهم بالتلاين لحكومة اليمن والتغاضي عن مماطلاتها، خوفاً من خروجها على الاتحاد، وتراجعها عن الخطوة الشكلية التي أقدمت عليها.. إن من يقدم هذه النصيحة لقادة العرب، فهو يغشهم عن قصد أو غير قصد.

إن الشعب العربي في اليمن، ليس عاجزاً ولا مستضعفاً ولا بخيلاً بالتضحيات، وقد قام بثورتين في خلال ثمان سنوات، وكان هدفه دائماً التخلص النهائي من الرجعية الحاكمة، ولم يقبل قط حلاً وسطاً، إلا على سبيل التضحية من أجل المصلحة العربية العليا، يوم لجأ حكّامه إلى أحرار العرب، وانتهجوا معهم سياسة خارجية تحررية، وبذلك استطاعوا أن يخففوا قليلاً من نقمة الشعب إلى حين.

ولكن السياسة التحررية في النطاق الخارجي، لا يجوز أن تكون هي الثمن الذي يدفعه الحكّام اليمنيون، ليكسبوا حقاً قدسياً، يبيح لهم خنق حياة الشعب في الداخل، ولا نظن العروبة المتحررة، ترضى بهذا أو تقبله، فلهذا كتبنا ما كتبناه من هذه الحقائق.

لقد كان من واجب حكّام اليمن، أن يفرحوا ويستبشروا، وتنحني رقابهم شكراً للشعب، الذي ارتضى بقاءهم في الحكم، وقبل منهم الحل الوسط بتنفيذ ميثاق الاتحاد.

إن الشعب العربي في اليمن، أول شعب عربي في العصر الحديث، ثار ضد ملكية مقدسة، تستمد سلطانها من السماء، عام ١٩٤٨.

وقد قام هذا الشعب بثورته وعامة الأقطار العربية محكومة بالملوك الأصنام، الذين كانت تقدسهم الدساتير والقوانين والصحافة والثقافة وكل أجهزة الدعاية.. أفيستبعد على هذا الشعب، وهو يعيش في عصر جمال عبد الناصر - أن يتحرك أو يثور لينال حقه الدستوري وحقه في الوحدة العربية؟..

إن أحرار اليمن لا يمكن أن يقبلوا مساومة في تنفيذ ميثاق الاتحاد ولا تجزئة ولا تأجيلاً:

فإما تنفيذه كاملاً وعاجلاً، وإلا اعتبر كل تأجيل وتجزئة نكوصاً صريحاً من الحكومة اليمنية، وربما كانت خطوتهم الأولى إزاء هذا الموقف هي مطالبة الجمهورية العربية المتحدة بالتخلي عن هؤلاء الحكّام، ليستطيع الشعب العربي في اليمن أن يمارس نضاله الداخلي، بعيداً عن التأثر بالعطف العربي الذي تتمتع به حكومة اليمن هذه الأيام.

العوائق المفتعلة

ما هي عوائق التنفيذ ؟

هل في اليمن عوائق حقيقية تمنع تفيذ الاتحاد فعلاً ؟

إن الشعب اليمني كله يقول بملء فمه: لا.

ولكن الرجعية الحاكمة تقول: نعم.

وفي نظرنا أن هذا من أهم البحوث التي يجب أن يدرسها قادة العروبة الأحرار ليستطيعوا فهم الحكومة اليمنية، ومواقفها ومناوراتها.

وسنبدأ نحن بافتراض كل العوائق التي قد تخطر على البال، ونتبرع لحكامنا الدهاة! بسردها واستقصائها تسهيلاً لمهمتهم في البحث عن هذه المعضلات.

ولكننا في الوقت نفسه سنناقش كل عائق على حدة، حتى يتبين فيه وجه الحق جلياً واضحاً، ثم نختتم هذه العوائق المختلفة بالعائق الحقيقي الوحيد، وهو رجعية العقلية الحاكمة، واستبدادها ورفضها لقيام حكومة حديثة ثم رغبتها في المناورة والتسويف، والكر والفر، والتظاهر بالإقدام، ثم البراعة في الإحجام.

*** إعلان الإفلاس**

هذه تعلة عتيقة، ظلت تستخدمها حكومة اليمن في تاريخها

الطويل، لتعتذر عن رجعيتها ورفضها لكل مشروع من مشاريع العمران منذ نصف قرن، وقد وفد إلى اليمن مئات الخبراء والزعماء والعلماء من البلاد العربية، خلال النصف القرن الماضي، وكان معظمهم يقدم لحكومة اليمن نصائح توجيهية، ومشاريع مدروسة للنهوض باليمن، ولكن الحكومة اليمنية كانت تدعي دائماً أنها.. مفلسة.. وفقيرة.. ولا تستطيع أن تقوم بمشاريع.. فإذا أحرجوها بتقديم حلول لتدبير المال أخرجت من جعبتها معاذير أخرى، فإذا أحرجت مرة أخرى تظاهرت بالموافقة والاقتناع حتى تتخلص من الزائر الكريم، ثم تتراجع أدراجها إلى السبات العميق..

يعلنون الحياة خوفاً، فإن لا قوا أماناً تراجعوا للحود

وبعد، هل يمكن أن يكون المال عقبة في سبيل التنفيذ لأي مشروع عمراني خلال نصف قرن ؟.

هل تعجز حكومة مستقلة تمام الاستقلال أن تبني لشعبها في مدى عشرات السنين مدرسة ابتدائية حديثة لأسباب مالية ؟..

إن القول بالإيجاب، منطق لا يفوه به أي إنسان، وهذا هو الحد الأدنى من الإصلاح وهو وحده يعطينا فكرة قاطعة عن رجعية حكّام اليمن، وتصميمهم حتى الآن على حرمان الشعب من التعليم، رغم أنه قد مرّ على توقيعهم لميثاق الاتحاد أكثر من تسعة أشهر!.

إن رفضهم لبناء مدرسة حديثة، خلال نصف قرن، لا يمكن أن يكون إفلاساً وعجزاً، بل هو تصميم مستميت على مقاومة أدنى حد من حدود الإصلاح، وهذا التصميم نفسه يشمل كافة الخطوات الإصلاحية، التي كان مفروضاً عليهم أن يخطوها، فلم يفعلوا.

ثم مَن الذي يستطيع أن يثبت أن الحكومة اليمنية فقيرة إلى هذا الحد ؟

إنها تمتص ثروة الشعب منذ سلّطها القدر عليه، وتأخذ منه ولا تعطيه شيئاً.. إنها الدولة الوحيدة في العالم التي لا تلتزم لشعبها بميزانية، ولا تعلن عن مقدار ما أخذت منه، ولا تنفق مما تجبيه غير المرتبات الزهيدة على الموظفين، ولا يعرف مقدار أموال الدولة إلا الإمام نفسه، لا يشاركه في هذا السر مخلوق.

إن التستّر بسر الميزانية يكفي وحده لإدانة حكام اليمن واتهامهم بابتزاز ثروة الشعب إذ لو كانوا أبرياء لما تستروا ولسمحوا بقيام إدارة مالية تقدم الحساب للشعب، وما عليهم بعد ذلك إذا أعلنوا إفلاسهم بعد أن يبرهنوا على ذلك بشهادة الاقتصاديين والإداريين الماليين.

أما ادعاء الإفلاس بدون بيّنة، والتعلل به للهروب من خطوات الإصلاح، فهو عذر كما يقولون - أقبح من الذنب، وهو لا يعدو أن يكون كشفاً لجريرة أخطر وأكبر، وهي اغتصاب مال الشعب.

ونحن لا نريد أن ندخل معهم في جدل، ولا ننقل رأي بعض الخبراء الذين يقدرون المخزون المدخر من مالية الدولة خلال النصف القرن، بما يقرب من مائة مليون جنيه وأن هذا المخزون قد تسرب معظمه إلى مخابىء سرية وإلى بنوك أجنبية.

لا نريد أن نقول هذا.. وإن كنا نؤمن به، ولكننا نريد أن نتحدى هؤلاء الحكّام تحدياً لا يقاوم، فنطالبهم بتقديم الحساب والسماح بقيام الجهاز المالي الحديث، ليتسلم، ميزانية الدولة، ويحصى وارداتها ومنصرفاتها، منذ قامت الدولة المتوكلية حتى الآن.

ولا أظن أحداً يتهمنا بالتطرف في هذه المطالبة، فإن هذا الحق بديهي من حقوق الشعوب، بل نعتقد أن كل قارىء في العالم لهذا الكلام سيأخذه الذهول حينما يعلم أن دولة في القرن العشرين، لا تعرف إحصاء ميزانيتها، وأن رجلاً واحداً، في هذه الدولة يملك وحده هذا السر، لسبب بسيط وهو أن مفاتيح الخزانة في جيبه شخصياً، وأنه يستطيع التصرف بهذا المال من دون أن يكون مسؤولاً، لا أمام وزراء، ولا أمام برلمان، ولا أمام إدارة ولا أمام شعب.

على أن هذا كله مجرد تحدّ عابر، أملاه الواقع المثير، وإلا فإن الإفلاس حتى لو كان صحيحاً.. لا يمكن أن يكون حجة مقنعة تبرر الإضراب الشامل عن الحياة مدى نصف قرن.

ألم يكن الحكّام اليمنيون – على افتراض إفلاسهم – يستطيعون بالأموال العربية والدولة العربية، والخبراء العرب، وجامعة دول العرب – أن يقوموا بنواة لعمران أو نهضة، ولو في نطاق محدود على سبيل القرض أو المساعدة أو التعاون بأي شكل من الأشكال ؟ . .

إسألوا الجامعة العربية إن شئتم – عن كل ما عرضته على حكومة اليمن من مساعدات، فرفضتها حكومة اليمن، لأنها مصرّة على أن لا تبني حجراً على حجر للنهوض بشعبها المنكوب السعيد ! . .

تلك هي التعلة الأولى المختلقة، التي يبررون بها خراب اليمن ودمارها . . وإذا كانت لا تصلح أن تكون عائقاً عن النهوض باليمن في الماضي، فإنه يستحيل قبولها كعائق عن الإصلاح في ظل الاتحاد العربي المرموق، وفي عصر الجمهورية العربية المتحدة، والثورة العراقية المباركة .

فلتسقط هذه التعلة إلى الأبد، ولتخرس ألسنة تهذي بها في يوم من الأيام .

*** الخوف من الاستعمار**

وهذه علة أخرى يتظاهر حكّام اليمن بالتعلل بها، ليبرروا حرمانهم للشعب من كل حقوق الحياة وفرص التقدم .

كانوا يقولون قبل عشرات السنين للسذّج الأبرياء من أبناء الشعب – إن العرب – جميعاً مطايا الاستعمار –، وإن أي تعاون

معهم على خلق حياة منظمة في البلاد، أو على تنفيذ أي مشروع، فإن ذلك يؤدي إلى دخول الاستعمار .

ولكن الأذكياء من أبناء الشعب، كانوا يرون تناقضاً واضحاً في هذه الدعوى . فبينما يخاف الحكّام استقدام أي عربي إلى اليمن في أي مهمة كانت خوفاً من الاستعمار كما يقولون، فإنهم في الوقت نفسه لا يستقدمون من الخارج إلا رجالاً أوروبيين ينتمون إلى الدول الاستعمارية .

ولم يكن حول اليمن دولة بعد انكلترا – تهدد استقلال اليمن مثل إيطاليا – فإنها بعد احتلالها الحبشة، كانت ترى احتلالها لليمن ضرورة استراتيجية، لا بد منها حتى تسيطر على البحر الأحمر من جانبيه .

هذه الدولة الاستعمارية الشديدة الخطر، كانت هي الدولة الأولى في العالم، التي يلقى خبراؤها وساستها ووفودها ترحيباً حاراً في صنعاء بشكل واضح صريح .

ولقد كان من الأمور المعروفة للناس جميعاً، أن موسوليني كان يبعث الهدايا لكبار رجال الدولة، باطلاع الإمام يحيى، بل وكان يصرف البعض منهم مقررات ثابتة .

وكان أطباء العائلة المالكة كلهم إيطاليون، بينما لم يكن هناك عربي واحد يستطيع البقاء في اليمن طويلاً، لأي سبب من الأسباب .

ومن هنا ندرك أن التظاهر بالخوف من الاستعمار، ما هو إلا تعلة زائفة، يذرون بها الرماد في العيون.

إنهم يخافون الشعب، ويخافون يقظته وتطوره، فيحاربون كل وسائل التقدم، ويخافون وجود الخبراء العرب في اليمن بدون أن يخافوا من العملاء الأوروبيين المستعمرين، لأن وجود العربي في اليمن من شأنه أن يخلق تجاوباً بينه وبين الشعب، فيوقظ النيام، ويثير الحماس والوعي.

وليس في منطق الناس أشد غرابة من القول.. بأن الحكومة المتوكلية اليمنية، إنما تجنبت الإصلاح خوفاً من الاستعمار. وأي فرصة للاستعمار أفضل من أن تظل في اليمن دولة شخصية عائلية، تنشر الجهل والفساد، والمرض والفوضى، وتثير حفيظة الشعب، وتمزق أوصاله، وتحطم قواه، فلا تبني له مدرسة، ولا طريقاً، ولا تليفوناً، ولا مستشفى، ولا صيدلية، ولا جيشاً منظّماً يحمي حدود البلاد، ولا تسمح بقيام أي إدارة منظمة في أي جانب من جوانب الحياة.

ولو فرضنا أنها صادقة في خوفها من استقدام أي غريب من خارج اليمن حتى ولو كان عربياً.. فما بالها لم تسمح لرجال الشعب اليمني أن يؤلفوا جهازاً حكومياً، يوزع السلطات والمسؤوليات بين المخلصين من اليمنيين، ولو بطريقة بدائية.. ولو بأسلوب من الأساليب التي كانت سائدة في اليمن قبل قرون عديدة..

وأكثر من ذلك، ما بالها وهي قائمة على أساس ديني، لم تحافظ على سمعتها الدينية وتضع حداً للرشوة والفساد، وخراب الذمم، وانتهاك الحرمات، وإباحة أعراض الناس وأموالهم ودمائهم.

لقد كان الشعب اليمني مخدّراً مأخوذاً، بهذا المنطق الزائف، مصدّقاً أن الإصلاح والتنظيم يؤدي إلى دخول الاستعمار لأنه كان بدائياً ساذجاً قبل عشرات السنين، بيد أن هذا الشعب نفسه، قد وعى واستيقظ واكتشف هذا الخداع، ولكن الغريب المذهل أن يوجد في هذا العصر الذري، وفي عصر القومية العربية الصاعدة، بعض من كتّاب العرب، يفسرون تاريخ اليمن تفسيراً مضللاً ساذجاً، فيجارون المنطق العتيق البائد الرجعي، الذي يرد كل أسباب التأخر في اليمن، إلى الخوف من الاستعمار.

أن هؤلاء يريدون – ولو من حيث لا يشعرون – أن يجددوا الشباب في الطغيان الهَر م المتداعي، ويسندوه بدعامات مضللة مسمومة كما يريدون، ولو من حيث لا يشعرون أيضاً – أن يُعيدوا شعب اليمن إلى بدائيته قبل عشرات السنين، وهيهات أن ترجع عجلة الزمان إلى الوراء، فلن يعود الطغيان الهرم إلى شبابه، ولن يفقد الشعب وعيه وتجاربه، وسمعه وبصره، فيعود بدائياً كما كان في عصر السلطان عبد الحميد ويصدق أنه ليس للشعب اليمني، إلا أحد مصيرين: إما الاستعمار، وإما العيش على قصب الذرة.

لقد اكتشف الشعب، حتى عجائزه وأطفاله وقبائله الأميون، أن الحكم المتوكلي في اليمن لا يقوم إلا على الفساد والرشوة ونهب الأموال، وانتهاك الحرمات، وإباحة أعراض اليمنيين وأموالهم ودمائهم.. وإذا كان لم يدخل الأجنبي المستعمر فعلاً، فقد مهد له الطريق، وحكم له الشعب وأباح له الشطر الجنوبي من اليمن يسرح فيه ويمرح، مستنداً إلى معاهدة مدتها أربعون عاماً.

وبعد ذلك، فهو حكم شخص، يستهدف سعادة أسرة مالكة وحدها. بدون الشعب وحسب هذه الأسرة ما في اليمن من خيرات طبيعية طائلة، فليست في حاجة إلى أموال أجنبية أو مساعدات خارجية، ما دامت لا تريد أن تحدث في اليمن تطوراً أو إصلاحاً يشمل الشعب كله بالرخاء ولا يهمها أن يعيش الشعب على قصب الذرة ما دامت هي تمتص دمه، وتعتصر منه طيبات الحياة.

إن حاكماً هذا هدفه في بلاد مليئة بالخيرات، لا يمكن أن يفكر في إشراك الأجنبي له في الحكم، لا سيما وقد أرضى هذا الأجنبي وتصالح معه، ومنحه الهدوء والاستقرار في الشطر الجنوبي من البلاد، واتفق معه على قاعدة خائنة (شيّلني أشيّلك، وانصرف عني أنصرف عنك).

على أننا لو سلمنا جدلاً، أن منطق الارتباط بين الإصلاح والاستعمار كان منطقاً يؤمن به حكّام اليمن عن سذاجة وبراءة وجهل، في الفترة التي سبقت دخول اليمن في الجامعة العربية،

فأين يذهب هذا المنطق بعد قيام جامعة الدول العربية واشتراك اليمن فيها ؟ ..

ألم تكن الجامعة العربية تستطيع أن تساعد اليمن على بناء مدرسة ابتدائية حديثة ؟ أم كان في هذه خطر يهدد استقلال اليمن؟

ألم تكن الجامعة العربية تستطيع أن تساعد اليمن على قيام جهاز حكومي منظم حديث ؟ ألم تكن بعض دول الجامعة بأموالها وخبرائها قادرة على أن تزحزح اليمن ولو خطوة واحدة عن حياة القرون الأولى ؟ ..

ابحثوا في أرشيفات الوزارات المصرية السابقة.. كم فيها من مشاريع تقدم بها خبراء مصريون إلى اليمن، ورفضتها حكومة اليمن، أو ماطلت في تطبيقها وتنفيذها حتى اليوم.

فأين الاستعمار من هذه الفرص الكبرى، التي أتيحت لنهضة اليمن، فأضاعتها الرجعية الحاكمة، وأضاعت عشرات السنين من حياة شعب عربي كبير ؟ ..

دعونا من العهود الماضية كلها، وأسقطوها من الحساب، واغفروا لحكّام اليمن كل ما أسلفوه، وابدأوا لهم عمراً جديداً، منذ قامت الثورة العربية الكبرى في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وظهرت في مصر حكومة الأحرار، ألد أعداء الاستعمار.

أكانت حكومة اليمن تخاف أن يدخل الإنجليز أو الأمريكان على أيدي رجال الثورة في مصر ؟ ..

ألم تكن مصر في عهد الثورة قد تقدمت بالمشاريع الإصلاحية، تلو المشاريع إلى حكومة اليمن ؟ . .

ألم تكن مصر البارّة الحنون، قد بذلت حتى تمويل المشاريع، عندما تتعلل حكومة اليمن بالإفلاس ؟ . .

فإلى أي حد سمحت حكومة اليمن لهذه النوايا الأخوية الطيّبة السخية، أن تساعدها على تطوير حياة اليمن، في أية ناحية من نواحي الحياة ؟ . .

إقرأوا الإحصائيات الرسمية لوزارات الثورة، فستجدون شيئاً عجيباً . .

سترون أن الحكومات البائدة من حكومات العملاء في البلاد العربية، قد وثقت بحكومة الثورة في مصر، في شؤون شتى، واستفادت منها، في جوانب كثيرة من مرافق النهضة . . وستجدون اليمن حتى بعد أن أعلنت الانضمام إلى السياسة التحررية، ووقّعت على العهود والمواثيق، وأصدرت عشرات التصريحات الطنّانة . . لم تقبل حتى اليوم من حكومة الثورة في مصر أي عون حقيقي في أي مجال.

ويأتي بعد هذه الحقائق الضارخة، بعض الكتّاب والمؤلفين للأقاصيص والترهات، فيردون أسباب تأخر اليمن كلها، إلى الخوف على اليمن من دخول الاستعمار، ويروون الكلمة المضللة لأقطاب الرجعية اليمنية القائلة : "إني أفضل أن آكل قصب الذرة أنا وشعبي، على دخول الاستعمار".

والله يعلم أن الرجعية الحاكمة في اليمن لم تذق في يوم من الأيام قصب الذرة، وأنها لا تأكل إلا من لحم الشعب، ولا تشرب إلا من دمه، ولا تعمل شيئاً في تاريخها الطويل إلا الخراب والدمار، وإعداد الشعب العربي في اليمن، لكي يكون لقمة سائغة للاستعمار، في أي يوم من الأيام.

والله يعلم أنه لولا الزحف العربي الجبار، الذي يقوده بطل العروبة جمال . . لكانت السياسة الرجعية الحاكمة، بعد أن انتصرت على حركة الأحرار – قد أتت ثمارها، وبلغت أبعد مراحلها في إعداد الشعب لحكم الاستعمار لأنه كان يستحيل أن تسير الأمور إلى غير هذه النهاية.

وبعد، فإننا لسنا في حاجة إلى القول بأن ميثاق الدول العربية المتحدة، ليس ميثاقاً بين اليمن وفرنسا، ولا بين اليمن وبريطانيا، حتى تحل عليه لعنة الخوف الزائف من الاستعمار . . فيتجمد ويموت، ويصبح مجرد شعارات وجلسات، وضيافات ومرتبات، وأطباقاً من الحلوى، ودِيَكة رومية.

إنه ليس استعماراً، بل هو الضمانة الوحيدة ضد جميع أخطار الاستعمار . . ويستطيع حكّام اليمن أن يبرهنوا على كرههم للاستعمار بأن يدقوا آخر مسمار في نعشه، ولن يكون ذلك المسمار، إلا تطبيق الميثاق بصورة عاجلة شاملة.

* **التهديد بالانحراف**

رأينا في موضوعنا السالف.. أن تعلة الخوف من الاستعمار لا تصلح أن تكون عذراً مقبولاً للهروب من الإصلاح، ورأينا أن أبسط حظ من الثقافة والوعي يدحض ذلك المنطق المقلوب ويثبت عكسه تماماً، وهو أن الإصلاح هو الوقاية الوحيدة ضد أخطار الاستعمار.

ونرى في موضوعنا هذا وجهاً آخر من وجوه المناورة المتوكلية..

بدأ هذا الوجه يتجلى بين الحين والحين في عهد مؤسسي هذه الدولة، فقد كانوا يقولون لخلصائهم: أن الإنجليز لن يسمحوا لليمن بأن تطور حياتها على أسس حديثة، وإن الدولة المتوكلية لو همّت أن تفعل ذلك، لما تركها الإنجليز وشأنها.

وشاع في الأوساط المطلعة يومئذ.. أن جلية الخبر اليقين، هو أن المعاهدة الإنجليزية اليمنية التي أبرمت عام ١٩٣٤، والتي بموجبها أطلقت الحكومة المتوكلية يد الإنجليز في جنوب اليمن خلال أربعين عاماً.. هذه المعاهدة كانت تنطوي على تفسيرات سرية لبعض بنودها، وهي ضرورة الاحتفاظ بالأوضاع كما هي، سواء في اليمن المستقلة أو المحتلة، وكان التعليل لذلك، أن الإنجليز لم يكونوا في حاجة إلى احتلال اليمن لا شمالها ولا جنوبها، يوم كانت الهند بأيديهم، وإنما كان يهمهم الاحتفاظ

بعدن.. الميناء البحري في طريق الهند.. ولم تكن علاقتهم بالمشيخات من حول عدن، إلا على سبيل إيجاد منطقة أمان، خلف ظهورهم تخوّلها المعاهدات مع مشايخ المنطقة وأمرائها..

ولكن هذه الخيوط الرفيعة الواهية، التي كانت بأيدي الإنجليز لا تصلح أن تكون ضماناً كافياً ولا دائماً، ما دام الجزء الشمالي المستقل من اليمن، يمكن أن تتاح له فرصة للتطور، وعند ذلك يستحيل عليه أن يترك شطره الجنوبي بدون أن يناضل في سبيل تحريره.

فامتد نظر الإنجليز إلى هذا المستقبل المحتمل، وتفاهموا مع الدولة المتوكلية، على أن تحتفظ بأوضاعها بدون تغيير، ويحتفظوا هم بأوضاع الجنوب كذلك بدون تغيير!..

والذي كان يخشاه الإنجليز أشد الخشية، ويرون فيه أمراً خطيراً مثيراً، هو دخول العنصر العربي إلى اليمن المستقلة، وقد رأينا خلال الحكم المتوكلي الطويل كثيراً من السياح وكانوا يجدون هذه الصعوبات، سواء عند الإدارة الإنجليزية في عدن، أو لدى حكومات العملاء في البلاد العربية، التي كانت تأتمر بأمر الإنجليز، أو لدى الحكومة اليمنية نفسها، وهي التي لا تكاد حتى الآن... وبعد سنوات سياستها التحررية - تسمح لعربي بدخول اليمن.

واعتاد الناس في بلاد العرب أن يجدوا هذه الصعوبات، في طريق زيارة اليمن وانصرفوا عن هذا القطر العربي العريق، حتى

عاش في معزل عن أرض العروبة كلها، وفاته أن يتفاعل مع النهضة العامة التي شملت البلاد العربية بأسرها، حتى لتراه بعد نصف قرن من حكم الاستقلال، وتحسبه لبدائيته وتأخره .. وكأنه جزء من مجاهل إفريقيا، لا من بلاد العرب.

وبذلك نجحت سياسة الإنجليز أعظم نجاح، واستطاعوا أن يتغلغلوا في مناطق الجنوب اليمني، في هدوء وفي غير عناء، وأن يحكموا هذا الجزء من بلاد العرب، من دون أن يتكبدوا نفقات جيش أو تسليح، بالإضافة إلى أنهم لم ينفقوا خلال هذه الفترة الطويلة أي نفقات ذات بال، على مرافق نهضة أو إصلاح، وذلك لأن وراءهم منطقة مثلى من فراغ السبات والرجعية، وهي منطقة اليمن المستقلة.

على أن الإنجليز لم يستطيعوا أن يبلغوا مبلغ الرجعية الحاكمة في براعة التخلص من مقتضيات الإصلاح، فاضطروا أن يتيحوا للشعب في عدن شيئاً من الحريات السياسية، وأن ينشئوا مرافق عامة وإدارات حديثة ومدارس، وأجهزة للحكم، سواء في عدن أو في إمارات الجنوب، حتى أصبح التفاوت شاسعاً وبعيداً بين مستوى الحياة في المنطقة المحتلة، والمنطقة المستقلة، وحتى استطاع الإنجليز أن يكسبوا للاستعمار سمعة زائفة مضللة تخدع الناس في هذه المنطقة، عندما يقارنون بين ما صنع الاستعمار في الجنوب، وما صنع الاستقلال في الشمال!.

والحقيقة أن الأوضاع في الشمال، ليست إلا نتيجة التآمر

والتجاوب بين الاستعمار والرجعية معاً، كما رأينا في ما سردناه من أسرار.

ومرة أخرى نقولها بكل صراحة: إنه لولا الثورة في مصر وما بثته من وعي في الأمة العربية ضد الاستعمار، لكانت هذه المنطقة العربية بسبب سوء الأوضاع في اليمن آخر منطقة في بلاد العرب تتحرك للنضال ضد الاستعمار.

يتضح لنا مما بيناه وحللناه، أن التخويف بالاستعمار، كسبب قاهر يعوق الإصلاح إنما هو نابع من هذه الاعتبارات المستورة الخفية.

وقد كان الحكم المتوكلي في الماضي لا يحتاج إلى أي مناورة مثيرة تبرر قعوده عن الإصلاح، لأن اليمن كانت تعيش في سبات، ولأن البلاد العربية كانت في معزل عن اليمن فساد السلام بين حكّام اليمن وبين الإنجليز أمداً طويلاً، وعاش كل من الاستعمار والرجعية في بحبوحة من الصفاء والاستقرار، حتى رماهما القدر بما لم يكن يخطر في الحسبان، وهو اندلاع أروع ثورة في التاريخ العربي الحديث، وهي ثورة مصر.

فتحرك الشعب في اليمن، كما لم يتحرك من قبل، وأحس الحكّام اليمنيون، بالضغط العربي المتحرر يدفعهم في طريق التحرر، وبلغ هذا الضغط العربي اليمني أقصى مداه بعد ثورة الجيش اليمني عام ١٩٥٥، فأسفر الحكّام اليمنيون عن وجوههم، وبعثوا رسلهم إلى القاهرة يهددون بالانضمام إلى حلف بغداد، إذا

لم تتوقف حركة الأحرار اليمنيين، وفي الوقت نفسه وعدوا بانتهاج سياسة خارجية متحررة، كما وعدوا. . بالاشتراك في أي حلف عربي متحرر، واشتركوا فعلاً في ميثاق جدة، وقاموا بزيارات إلى الدول الشرقية، واستقدموا الأسلحة من هناك أسوة بمصر.

ولكن كل هذا، كان مجرد مناورات ومظاهرات، بدليل أنهم لم ينفذوا حرفاً واحداً من ميثاق جدة، ولم ينتفعوا بالأسلحة الحديثة، ولم يسمحوا بتدريب اليمنيين على استعمالها، حتى تعرضت هذه الأسلحة للفساد، لأنه لا يوجد مَن يصونها ولا مَن يستعملها، ولأن شراءها كان طفرة غير طبيعية لا تتفق مع مستوى الدولة المتوكلية المعرقة في الرجعية.

واستنفدت الحكومة اليمنية مفعول هذه الأسلحة في الدعاية، كما استنفدت مفعول التوقيع على ميثاق جدة، وأحسّت بضعف مركزها، فعادت من جديد تبحث في جعبتها عن مهرب من تيار التحرير، فلم تجد أدهى ولا أبرع من افتعال معارك بينها وبين الإنجليز المستعمرين وإصدار التصريحات تلو التصريحات، والاستغاثات من العدوان الاستعماري تلو الاستغاثات، فلم يجد العرب، ولم يجد اليمنيون الأحرار بدًّا من الوقوف إلى جانبها وسط هذه المعمعة المثارة، كما لم يجدوا بدًّا من العطف عليها والسكوت عنها، وإيقاف النضال من أجل الإصلاح الداخلي.

ولكن الأحرار اليمانيين سلكوا بعد اكتشاف هذه المناورة سبيلاً منطقياً لا يغلب، فجعلوا من تنفيذ ميثاق جدة الوقاية الوحيدة من عدوان الإنجليز، كما طالبوا بفتح أبواب التطوع والتدريب لشباب اليمن، جنوبها وشمالها، وكان في هذا إحراج للحكومة المتوكلية أيما إحراج فأصبحت تقتصد في الشكوى من العدوان، لأن ذلك يلزمها أن تقع في ما هربت منه، وهو تنفيذ ميثاق جدة، وتدريب الشباب على الأسلحة الحديثة، واستقدام جيش عربي يحمي المنطقة المستقلة من خطر العدوان، كما فعلت سوريا من قبل الوحدة.

وعاد المسؤولون اليمنيون يبحثون لهم عن حل يخلصهم مما تورطوا فيه مع الإنجليز لأنهم لم يكونوا جادين في الصراع معهم، ولا يمكنهم الذهاب إلى حد الاستفادة من العرب ضد الإنجليز. . فحاولوا الدخول في مباحثات مع الإنجليز للبحث عن مخرج، ولكنهم لم يوفّقوا لأسباب ليس هذا محل ذكرها!

غير أنهم لم يكادوا يتراجعون عن هذه الخطوة، حتى وجدوا تيار الوحدة بين مصر وسوريا يشعل الأمة العربية من أولها إلى آخرها، ووجدوا أمامهم مطالبات الأحرار اليمانيين بالاشتراك في هذه الوحدة، فأعلنت الحكومة اليمنية الانضمام إلى الوحدة في شكل اتحاد فيدرالي.

واشتركت فعلاً، ووقّعت على ميثاق "الدول العربية المتحدة" كما عرفها الجميع، وأيدها الشعب كله على هذه الخطوة، وأتاح لها فرصة طويلة تعد نفسها للتنفيذ. .

ومرت فترة قاسية على الجمهورية العربية المتحدة، وهي في صراع مع حكومات العملاء ونعمت حكومة اليمن بهذه الفترة، كما لم تنعم في أية فترة من فترات الانتصار، لأنها كانت في مركز ممتاز، فإن صوتها في المجال الدولي والعربي له أهمية كبرى بالنسبة إلى الجمهورية العربية المتحدة..

ومن جهة أخرى، فإنها وجدت نفسها غير مضطرة، لتنفيذ حرف واحد من ميثاق الاتحاد لأنه ما من أحد يستطيع أن يطالبها بالتنفيذ، أو يضغط عليها، وإلى جانبها حكومات العملاء جميعاً.. تستطيع أن تنحاز إليها، عندما تشعر بأي ضغط يقع عليها.

وقبل أيام من ثورة العراق.. كان المسؤولون اليمنيون قد بعثوا وفداً لمفاوضة الإنجليز سراً في "ديردوا" كما كانوا قد عقدوا العزم على الاستمرار في تجميد الاتحاد، والاعتذار عن تنفيذه، بحجة الخوف أو التخويف من عبد الإله الذي كان يرشحه الإنجليز لأن يكون ملكاً على جنوب اليمن.

ولكن القدر سرعان ما أطاح بهذه الحجة، بل سرعان ما قضى على كل عنصر من عناصر المساومة، التي كانت تدعم الموقف السلبي، الذي التزمته حكومة اليمن، خلال ستة أشهر، منذ وقّعت ميثاق الاتحاد، حتى قامت ثورة العراق.

ووجد المسؤولون اليمنيون أنفسهم وجهاً لوجه، أمام ضرورة تنفيذ الاتحاد، أو إطلاق الثورة الشعبية من عقالها، في ظروف غير ملائمة لأصحاب العروش... وعندئذ فقط.. وبعد أن

انكشف موقفهم للشعب كله – أقدموا على خطوة جديدة، فبعثوا بوزراء الجانب اليمني في مجلس الاتحاد.

وتلك هي القصة..

وهنا نحس بأن عنصر التهديد بالاستعمار وعملاء الاستعمار، لا يزال كامناً وراء موقف الحكومة اليمنية، حتى بعد أن بعثت بوزرائها إلى المجلس، وإنما سردنا تقلبات هذه الأحداث كلها، لكي نضع أيدينا على موطن هذه العلة، وهي التخويف بالاستعمار، أو التهديد بالانحياز إلى صفوف الانحراف، كلما أحس حكّام اليمن بضغط شعبي أو عربي.. وقد لا تهدد الحكومة اليمنية بذلك صراحة، إنما يكون موقفها منطوياً على هذا التهديد ضمناً، أو على الأقل يجد العرب أنفسهم متخوفين من هذا الاحتمال، فيقبلون من حكومة اليمن أي قدر ولو ضئيل من خطوات التنفيذ.. وهذا هو ما عقدنا هذا الفصل للتحذير منه.

لأن هذه الروح إذا سادت جو العاملين في مجلس الاتحاد أو اللجان المتفرعة عنه، فإنها جديرة أن تجعل من ميثاق "الدول العربية المتحدة" مهزلة دونها مهزلة الجامعة العربية في عهودها الهزيلة المشؤومة !...

إن مبدأ ضرورة المداراة للحكّام، خوفاً من أن يبيعوا نفوسهم أو بلادهم للشيطان.. مبدأ لا يمكن إقراره أو قبوله إلا في فترات استثنائية خطيرة، كالفترة التي كانت تعيشها العروبة قبيل ثورة العراق.

ولو ساد هذا المبدأ في حياة الدول والشعوب، لظهر الفساد في البر والبحر، وتسلط الطغاة الفاسدون على شعوبهم، وأخمدوا أنفاسها، ومنعوها من أن تمارس أي حق من حقوقها في الحريات السياسية بل ولحرّموا عليها المطالبة بأي حق من حقوق الإنسان، ما دامت تستطيع أن تهدد ببيع نفسها إلى الشيطان.

وإذا كانت قيادة العروبة المتحررة، ترى - لاعتبارات ترجحها هي - أن تقبل من حكومة اليمن أي خطوة تخطوها، فإننا كشعب يعاني نكبة كبرى تهدد حياته بالفناء... لا نستطيع أن نجعل مصير بلادنا دائماً كبش الفداء، لاعتبارات دبلوماسية أقل أهمية بكثير من مأساتنا الداخلية، التي لا يعرف البشر لها في العالم نظيراً.

وعندنا - معشر اليمانيين - حقيقة كبرى، لا يعرفها العرب، وقد لا يستطيعون أن يتصوروا مداها، وهي أن التهديد بانحياز المسؤولين إلى صفوف الاستعماريين - إنما هو من قبيل التهويش بخطوة يستحيل حدوثها في ظروف كالظروف التي تحيط بالحكومة اليمنية الراهنة.

وهذه الحقيقة الكبرى، التي لا يعرف كنهها ومداها غير اليمنيين... هي أنه ليس في اليمن حكومة قائمة فعلاً، بل وليس فيها فرد حاكم مطلق بالمعنى المفهوم من هذا التعبير.

إن اليمن لا يحكمها، إلا وهم لشبح خرافي يمر على الناس خاطفاً كأشباح ليلة القدر، عدة مرات في العام، يراه بعض

المحظوظين، ويتوهم رؤياه بعض الحالمين. وحقيقة النكبة ليس في أن الشبح لا يراه الشعب، بل لأنه وهو الذي لا وجود له في حياة الناس - هو الذي يتصرف في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الشعب، وشؤون الدولة بواسطة الألغاز والشفر والبرقيات وعن طريق الخدم والأطفال.

وهذا الشبح عنده إصرار ما بعده إصرار على أن يظل هو الحاكم الفعلي للبلاد لا يشاركه في المسؤولية الفعلية أحد، حتى ابنه وفلذة كبده..

ثم هو لا يقبل مع ذلك بأي حال من الأحوال... أن تقوم لخدمته إدارة حكوكية منظمة بل يصرّ على أن تكون هناك فوضى شاملة، لا تحاسب ولا تنتقد، وإنما تتلقى الشفر والأوامر الشفوية والبرقية، وتنفيذها بلا مسؤولية ولا إحساس ولا مبالاة.

وهذه الحقيقة الكبرى وحدها، بقطع النظر عما حولها، وعما تفرع منها من حقائق أخرى.. لا تقل عنها غرابة، هذه الحقيقة وحدها كافية لأن تجعل الانحراف إلى صفوف الاستعماريين أمراً لا يمكن تحقيقه، إذ لا يستطيع الاستعمار ولا حلفاؤه وعملاؤه أن يتعاونوا مع أشباح تعيش في هذه الأطوار المذهلة حياة فوضوية لا ضابط لها ولا نظام، ولا إدارة ولا استقرار في رأي، ولا اتجاه ولا قاعدة في الحياة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن هذا الشبح الحاكم، قد أثار على نفسه طوفاناً شعبياً من السخط، لم يعد يمسكه عن

الاندلاع والاكتساح، إلا هذا العطف العربي على سياسية اليمن الخارجية.

فلو انحرف المسؤولون اليمنيون عن هذه السياسة قيد أنملة، لما استطاعت قوة في العالم أن تحميهم من غضب الشعب وثورته.

ولعل الناس في البلاد العربية يتصورون وضعهم كوضع حسين أو شمعون، ولكن الناس لا يعرفون ماذا يجري في عالم المريخ من ظواهر ونواميس، فيختلقون لذلك الكوكب المجهول نواميس الأرض واحتمالاتها، وهناك فرق كبير بين شمعون وحسين، وبين المسؤولين عن الأوضاع المذهلة في اليمن.

إن لدى حسين فريقاً من الشعب مضللون مخدوعون، من البدو وغير البدو، وعند حسين جهاز حكومي من الخيانة منظم تنظيماً حديثاً، وطبقة من العملاء الأكفاء، رباهم الاستعمار وأعدهم لمثل هذه الخيانات... وبذلك استطاع حسين أن يقف على قدميه منحرفاً خائفاً فترة غير قصيرة.

وأكثر من هذا يصدق على وضع شمعون، فإن له إلى جانب ذلك كله شطراً من الشعب مؤمن به، مسلح منظم، واع لموقفه، مستميتٌ في الدفاع عنه إلى أبعد حدود الاستماتة.

أما اليمن، فإنها لا تحكم إلا كما ذكرنا، بواسطة شبح، لا يستند إلى قوة الجيش ولا إلى القبائل، ولا إلى طبقة معينة من الشعب، ولا إلى جهاز حكومي، ولا إلى كفاءات خائنة.. وإنما يستند إلى شيء واحد فقط، هو الخيط الباقي له من إمكانيات

البقاء، وهو أنه ضد الاستعمار، ولو من الناحية الشكلية.. ومتحالف مع السياسة العربية المتحررة، ولو من الناحية الشكلية أيضاً.

وهذا الاعتبار هو ضمانته الوحيدة للاستمرار في عافية من الانفجار والزوال..

فحينما يقال في البلاد العربية، إن الضغط على المسؤولين اليمنيين سيدفعهم إلى أحضان الاستعمار، فإن هذا قول مجرد من الواقع تجرداً بعيداً وهو قول مبني على تطورات مفترضة افتراضاً، لا يقوم على أساس فهم بسر الواقع المسحور، الذي تعيش فيه الأشباح اليمنية الحاكمة.

وهذا هو الذي يزعج الطبقة المستنيرة في اليمن، ويثير فيهم الأسى والحسرة ويجعل بين عقولهم والعقلية العربية المتفرجة من بعيد... ستاراً حديدياً من العجز عن التفاهم والالتقاء...

وهؤلاء اليمنيون يرون حياة شعبهم تذوب وتضمحل وتتلاشى، ويرون الملايين تخسر أعمارها وأطفالها وإنسانيتها، وفرصها في الحياة لأسباب غير واقعية، وليس لها أي أساس.

واليمنيون جميعاً، يعرفون أن لو انحرف حكامهم نحو صفوف الخيانات في السياسة الخارجية، لما استطاعوا البقاء يوماً واحداً في الحكم.

وعلى ذلك، فإنه لا يجوز الرضى والسكوت عن مماطلاتهم وتسويفاتهم في تنفيذ ميثاق الاتحاد، ولا يجوز الاستماع إلى نصائح الناصحين بسياسة المداراة والمجاملات والاستجداء!..

ثم لماذا المداراة لحكام اليمن وحدهم، وقد رأينا العروبة المتحررة، منذ هبّت ثورتها المقدسة، وهي تعلن كفرها بسياسة المجاملات التي قضت على كيان الجامعة العربية في الماضي وأدت إلى نكبة فلسطين، وإلى نكبات أخرى عديدة.

لو كانت العروبة المتحررة، تؤمن بالمداراة، لكان من الممكن أن تداري حسيناً مثلاً، وتقبل بعض تصرفاته نحو أحرار الأردن، وترضى منه بمجرد الاحتفاظ باستقلال الأردن، لا سيما وأنه لم يسفر عن وجهه عقب إسقاط حكومة النابلسي، وظل يتظاهر بسياسة التحرر... ولكنها لم تفعل ذلك ولم تقف عن مهاجمته، بحجة أن هذه المجاملة قد تدفعه إلى حلف بغداد، أو إلى أحضان الشيطان.

وقد حدث ذلك كله، ولم يقل أحد إن هذه السياسة كانت خاطئة، وإنها أدت إلى احتلال الأردن. إذ إن الثورة العربية لا ترضى بالحلول الوسط، ولا تداري ولا تستجدي بل تمضي في زحفها وعنفوانها، مهما أدى هذا السلوك من نتائج وقتية.

وإننا لنود أن نذكر الوزراء في مجلس الاتحاد، سواء منهم الجانب الجمهوري أو الجانب المتوكلي، بالكلمة الخالدة لزعيمنا وقائد ثورتنا الرئيس جمال عبد الناصر:

- "لن أضلل، ولن أخادع، ولن أستجدي".

وأمر آخر على أعظم جانب من الأهمية، نذكر به العرب، وهو أن هذه السياسة التحررية، التي أعلنها حكّام اليمن في

المجال الخارجي، إنما كانت نتيجة للنزعة الثورية الصريحة، التي سلكها قادة الثورة الأبرار، وأعلنوها للشعب العربي كله، وأتاحوا لأحرار العرب متنفساً حراً كريماً في القاهرة، يعلنون به مشيئة الشعب العربي في كل قطر.

وكان من هؤلاء أحرار اليمن أنفسهم الذين استطاعوا أن يعلنوا مشيئة الشعب في "صوت العرب" ثم في جريدة "صوت اليمن".. فلما أدرك المسؤولون اليمنيون ذلك، لم يستطيعوا أن ينحرفوا يميناً أو شمالاً، لضعف مركزهم في الداخل كما ذكرنا، بل أذعنوا واستسلموا لمشيئة الشعب، وأعلنوا عن سياسة تحررية منذ ذلك الحين في مقابل سكوت الأحرار.

نعم، إنهم هددوا مجرد تهديد بالانضمام إلى حلف بغداد ولكنهم كانوا غير جادين، لسبب بسيط، وهو أنهم عاجزون عن اتخاذ مثل هذه الخطوة عجزاً حقيقياً.

نعم إنهم كانوا عاجزين فعلاً، حتى في ذلك الحين، يوم كانت العروبة المتحررة ضعيفة الجانب، تعيش في وسط الزوابع والهزات، يوم كان هناك حلف بغداد، وحكومات العملاء، والوعي العربي لم يكن قد تجمع وتبلور حول قيادته العربية الثورية، كما هو اليوم، وكانت مكاسب العروبة نهباً بينها وبين أعدائها.

فحينما يعجزون عن الانحراف في تلك الظروف الملائمة لهم خارجياً، فكيف يستطيعونه ويقدمون عليه، بعد أن نالت العروبة مكاسبها المعجزة، وحطّمت أطغى أعدائها ؟..

وأخيراً، فإن احتمال تعويض مشاريع الاتحاد، بسلاح التهديد بالانحراف لا يجوز أن يخطر في بال المسؤولين عن مجلس الاتحاد، ولا يجوز أن يرهبوا ذلك السلاح، فإنه سلاح واهن ذليل.

والشعب اليمني لن يقبل المشاريع المبتورة ولا المجزأة، ولن يأخذ حقوقه في الاتحاد مع العروبة صدقة من حكامه، أو تفضلاً.. فإنها مشيئة يجب أن تتحقق كاملة غير منقوصة.

*** التعلل بمرض المسؤولين**

وهنا لا بد لنا أن نطرق علة قد يتعلل بها، لتعويق مشاريع الاتحاد، إنها لا تصلح أن تكون علة ولا عذراً، بل تصلح لأمر آخر، وهو أن تكون أنصع حجة صارخة تعلن للملأ، أنه لا يوجد في اليمن حكومة ولا جهاز حكومة !..

كم سمعنا من مشاريع تعطلت ودُفنت، لأن عاهل اليمن مريض!.. وكم رأينا عجلة الحياة في الشعب اليمني كله تشل وتتوقف، لأن زكاماً خفيفاً ألم بالبلاط الشريف!..

بل أي شهر يمر في عمر هذه الدولة المتوكلية، ولا تكون معظم أيامه ولياليه عاطلة باطلة، متشنجة ملغية من حساب الدهر، لأن المرض ألحّ إلحاحاً متصلاً بالمقام المنيف ؟!..

فإذا شاء القدر أن يجعل مصير ميثاق "الدولة العربية المتحدة" في عداد المشاريع التعسة السابقة، التي قتلتها الأمراض المستعصية الأزلية، التي لا تفارق المسؤولين اليمنيين، فإننا سنصبح كما قال المثل: "فكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا"!..

وما قيمة هذا الاتحاد إذا لم يستطع أن يخلق في البلاد حالة مستقرة دائبة الحركة، وجهازاً إدارياً منظماً لا يصاب بالأمراض، ولا تطرقه نوبات الإغماء والعطاس ؟..

إن أول شيء يفهمه اليمني العادي من قيام الاتحاد بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة، هو أن هذا الاتحاد سينقذ البلاد من هذا الشلل الدائم الذي يصيبها لانعدام الجهاز الحكومي، وارتباط شؤون الدولة كبيرها وصغيرها بشخص واحد، سيكون تحت رحمة الأمراض، فإنه حينئذ يصبح كالطبيب الذي يحتاج إلى طبيب.

*** التعلل بقلّة الكفاءات**

وهذه نغمة عتيقة يرددها المسؤولون عن مصير اليمن منذ نصف قرن، فقد كانوا دائماً كلما طلب منهم تنظيم جهاز وإدارة على أسس سليمة، والثقة برجال الشعب، ومنحهم المسؤوليات للبت في الأمور من دون الرجوع إلى الأمام.. اعتذروا عن ذلك، بأنه ليس في اليمن رجال مؤمنون أو مؤتمنون وقد سمع مثل هذا الاعتذار العجيب أحد رجال العراق الموفدين إلى الحكومة اليمنية قبل الحرب العالمية الثانية، وهو السيد ثابت عبد النور، فردّ على الإمام يحيى قائلاً له:

- إذا كان الأمر هكذا، وأنت أمير المؤمنين، فأين المؤمنون الذين أنت أميرهم؟!..

وأحياناً كانوا يرددون هذا البيت الشعري القديم:

إني لأغمض عيني ثم أفتحها على كثير، ولكن لا أرى أحدا

ونسي هؤلاء المسؤولون... أنهم المسؤولون عن إعداد الكفاءات، وتربية الرجال، وإتاحة الفرصة لتعليم الأجيال العديدة التي نشأت في ظل حكمهم من شباب اليمن، وفتح المدارس الحديثة في طول البلاد وعرضها حتى ينشأ جيل كامل من الرجال الأكفاء.

لقد مضى عليهم خمسون عاماً، وهم يحقرون الشعب، وينكرون آدميته وحظه من المواهب البشرية، فلماذا لم يحاولوا تعليمه وتربيته وإعداده؟.. ولو أنهم فعلوا ذلك لأغمضوا أعينهم وفتحوها ثم وجدوا الكثير.

إن الاستعمار وهو أجنبي دخيل غاصب، حينما يحس بأنه مضطر لإيجاد إدارة منظمة تحقق أغراضه الاستعمارية، وتسهل له استغلال البلاد، فإنه يحمله على إيجاد نوع من التعليم لإيجاد رجال أكفاء، والأتراك المستعمرون أنفسهم، كانوا قد بدأوا يصنعون في اليمن الصنيع نفسه، رغم أنهم كانوا غير مستقرين.

وقد ظلت الحكومة المتوكلية، تعتمد على بقايا ما خلفه الأتراك من كفاءات رغم قلتها، ولكنها لم تتح لأصحاب هذه الكفاءات أن يتسلموا مسؤولياتهم كاملة.

ومع ذلك، فإن حكاية التعلل بانعدام الرجال الأكفاء، لا يقولونها إلا حينما يطلب منهم القيام بخطوات إصلاحية، لا تلائم أمزجتهم.

أما حينما يكون الأمر متعلقاً بمصالحهم الخاصة، فإنهم يمنحون بعض الأشخاص ثقة تامة ويكلون إليهم أموراً معقدة، تفتقر إلى مهارة وكفاءة، فلا يمر عليهم وقت قصير حتى يكونوا قد بلغوا في عملهم مبلغ الجدارة التامة.

فعلى هذا القياس، وعندما يتطلب تنفيذ ميثاق الاتحاد رجالاً أكفاء، يمكن سلوك الطريق نفسه، بالنسبة إلى الاستفادة من طبقات الجيل الحالي الذي عاش في اليمن، ولم تتح له فرصة التعليم الحديث، وستؤازره وتعمل معه جنباً إلى جنب، عدة مصادر للرجال ذوي الخبرة الحديثة.

المصدر الأول: الشباب المتعلم الذي استكمل تعليمه الجامعي أو اكتفى بما هو دون المرحلة الجامعية، وهم الآن عدد لا بأس به، ومع ذلك لم نجد أحداً منهم تعين في منصب ذي شأن حتى الآن، وكان ينبغي أن لا يخلو منهم المجلس التنفيذي للاتحاد.

المصدر الثاني: الكفاءات المغمورة في صفوف المهاجرين اليمنيين المنتشرة في كافة أنحاء العالم.

فإن بين المهاجرين اليمنيين رجالاً أكفاء، يحسنون القيام بمختلف الأعمال الإدارية والفنية. منهم مَن تعلموا في البلاد التي يعيشون فيها، ومنهم من حذقوا الخبرة بالممارسة، حتى صاروا لا يقلون كفاءة عن المتعلمين في بعض شؤون الحياة.

ولما كان هؤلاء متفرقين في أنحاء كثيرة من العالم، فإنه لكي يمكن الحصول على معلومات دقيقة عنهم، تحصي أسماءهم وخبراتهم، لا بد من إرسال وفد من قِبل المجلس التنفيذي، ليطوف في مختلف المهاجر، ويبحث بحثاً إحصائياً علمياً عن هؤلاء الرجال.

ولكن المشكلة التي ستواجه هذا الوفد، أن اليمنيين صراحة لا يثقون بحكومتهم فلا بد أن يكون عنصر التمثيل للجمهورية العربية المتحدة قوياً ومؤلفاً من شخصيات معروفة في هذا العهد العربي التحرري، حتى يمكن بهذه الطريقة أن يتشجع بعض المهاجرين اليمنيين ويعلنوا عن أسمائهم وكفاءاتهم ويظهروا الاستعداد للتخلي عن مسؤولياتهم وأعمالهم في المهجر، والانتقال إلى اليمن.

غير أن خطوة الانتقال إلى اليمن بالذات، لا أظنه يقدم عليها إلا النادر القليل، لانعدام الثقة بنوايا الحكومة المتوكلية. لذلك فلا بد من ضمانات تقدمها الجمهورية العربية بالذات، حتى تطمئن قلوب كثيرة.

المصدر الثالث: الكفاءات في الجنوب المحتل من اليمن.

إذ يوجد في عدن ومناطق الجنوب الأخرى عدد ضخم من ذوي الخبرة والكفاءة ممن تعلموا في عدن أو في الخارج.. يمكن أن تستفيد منهم اليمن الأم في عهد الاتحاد لتحقيق مشاريع الاتحاد، ولإقامة جهاز حكومي حديث.

ولا ريب أن الحكومة اليمنية تستطيع أن تضع الاستعمار البريطاني أمام وحدة حقيقية يصر عليها الشعب في الجنوب كله، إذا هي اتخذت مثل هذه الخطوة على شرط أن لا يكون إشراك أبناء الجنوب إشراكاً رمزياً بعدد قليل من الرجال لمجرد الاسترضاء، بل يجب أن تكون الاستعانة بهم على نطاق واسع، وعلى قدم المساواة مع أبناء تعز وصنعاء وإب وغيرها من مدن القسم المستقل.

المصدر الرابع: كفاءات من الجمهورية العربية المتحدة

إن ميثاق اتحاد الدول العربية المتحدة ينص على أن مواطني الاتحاد متساوون في الحقوق والواجبات العامة، وأن لكل مواطن في الاتحاد حق العمل وتولي الوظائف العامة في البلاد المتحدة بدون تفرقة. وهذا هو أخصب مصدر من مصادر الرجال.

ومن كل ما بسّطناه وأوضحناه في هذا الشأن يتبيّن أن الاعتذار بندرة الكفاءات اليمنية لا محل له ولا اعتبار، بل إننا نقدر أن جهاز الحكم اليمني إذا قدر له أن ينشأ وإدارات الاتحاد.. قد لا يستطيعان استيعاب الدر الموجود من الرجال في المصادر التي ذكرناها.

ولا بد لنا قبل الانتهاء من هذا الموضوع أن نشير إلى نقطتين هامتين، النقطة الأولى هي تحقيق المساواة قبل كل شيء بين أبناء اليمن المستقل من أتباع المذهبين الشافعي والزيدي، ومن الفئتين الهاشمية والقحطانية، فلا يكون التعيين في الوظائف كما كان في الماضي متحيزاً إلى فريق دون فريق، وإلا فإن استمرار الحيف في

ظل الاتحاد سيصبح خطراً على مصير الاتحاد وعلى مصير الإيمان بالقومية العربية من أساسها.

لقد كان الناس في الماضي يصبرون ويتحمّلون لأنهم يعلمون أن الأوضاع كلها مقلوبة وفاسدة، ولا بد من القضاء عليها نهائياً، حتى تعود المياه إلى مجاريها.

أما وقد قام الاتحاد المنشود، وأصبحت الجمهورية العربية المتحدة شريكة فيه، وهي الدولة العربية، التي هي المثل الأعلى في نظر الشعب العربي في اليمن، والتي يؤمن الناس بقائدها الرئيس جمال إيمانهم بالأنبياء والمرسلين.. فلا يجوز والحالة هذه.. أن تبقى الأوضاع مقلوبة كما كانت، ولا يجوز أن يقبل أحد قيام حالة جديدة، قد تجرح إيمان الناس بمركز قيادتهم العربية المقدسة.

والنقطة الثانية.. إن في اليمن جيلاً كاملاً من الناس، حُرموا من التعليم الحديث، وكان حرمانهم هذا خارجاً عن إرادتهم، ويجب أن يعتبروا ضحايا الحكومة المتوكلية.

هذا الجيل، لا بد أن ينظر إليه بعين الاعتبار، ولا بد أن توضع مشكلته نصب العين، فإنه عندما تحتشد الكفاءات الحديثة من كل صوب وأوب فجأة..

وعندما تنشأ أعمال وإدارات جديدة كل الجدة على هذا الجيل، فستنشأ مشكلة كبرى، وهي مشكلة تحقيق العدل بين المواطنين من أبناء الجيل القديم. والجيل الحديث في تسلم زمام الوظائف، ومشكلة ضرورة اختيار الأكفاء لضمان نجاح العمل

واستتباب النظام، وتطوير البلاد على أسس حديثة.. هاتان المشكلتان لا بد أن توضع لهما حلول، ولا بد أن يؤخذ في الاعتبار أن لا تستأثر باهتمامنا إحداهما دون الأخرى.. فلا نتحمس لتفضيل الكفاءات الحديثة، تحمساً مطلقاً، بدون أن ننظر إلى الفئة الأخرى، أو نعيرها اهتماماً، فنخلف وراء النهضة المرتقبة ألوفاً من الضحايا البريئة في عهد لا يودّ أحد أن تكون له ضحايا، لأن مثل هذه الضحايا لو تزعزع إيمانها بعهد العروبة المرتجى.. لكان في هذا ما فيه من أذى، لمستقبل العقيدة العربية في ربوع اليمن.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لا نتحمس كذلك ونتزمت، ونجعل من وجود الجيل المحروم من التعليم عقبة دون تطوير البلاد، وقيام أجهزة إدارية حديثة، فندع هذا الجيل يتحكم في سير الأمور ويحافظ على تراث الماضي العتيق الذي يجب أن يزول.

لأنّا لو فعلنا ذلك، لأصبح من المستحيل تنفيذ ميثاق الاتحاد، وقيام عهد جديد في اليمن.

لا بد أن تكون هاتان المشكلتان موضع دراسة وعناية، حتى يستطيع مجلس الاتحاد، أن يوجد لهما حلاً يجمع بين ضرورة التطور السريع وضرورة العدل والمساواة..

*** معارضة الحسن وأنصاره**

لقد كان المسؤولون في اليمن، منذ التوقيع على ميثاق الدول

العربية المتحدة إلى ثورة العراق.. يتأرجحون بين تيارات عديدة متناقضة، تنطلق من أنفسهم، وممن حولهم، وكان رائدهم الأهم والأقوى هو التفكير في الخلاص من هذا الميثاق أو تجميده أو المماطلة في تنفيذه.

وقد استخدموا وسائل شتى لهذا الغرض، فتارة يتعللون بالإنجليز وعدوانهم، وتارة بالمرض وأطواره، وأخيراً وجدوا كما ظنوا.. بطلاً لمسرحية لا نهاية لفصولها، وهو سيف الإسلام الحسن، الذي كان بأمريكا منفياً أو شبه منفي فاستقدموه فجأة إلى اليمن ليتخذوا منه شبهة تبرر التلكؤ عن تنفيذ الاتحاد، وينسبوا إليه وإلى مَن ينتصر له.. كل أسباب التعويق والتجميد، وقد لا يكون الحسن قال أو فعل شيئاً في هذا الصدد، وفي هذه الفترة بالذات، ولكنهم لا يتهمونه بذلك علناً، حتى ينكر أو يدافع عن نفسه، ولكنهم كما يبدو.. يسرّون بهذا الخبر إلى مَن يهمهم هذا الخبر عن طريق الألغاز والإشارات والأحاجي، وحتى يفهم الناس موقفهم عن طريق الحدس أو الإلهام أو العبقرية.

وقد أسلفنا القول، إن الشعب لا يملك حرية المعارضة في أي أمر من أمور حياته العامة، فإذا وجدت حرية لمعارضة الاتحاد بالذات، ولو للحسن، فهذه حرية مفتعلة مرغوب فيها من الحكومة بالذات، وهي في الواقع ليست معارضة للحكومة، وإنما هي تأييد لرغبتها التي لا تريد إعلانها للعرب.

وكل مَن يعرف أوضاع اليمن، وما ترتكس فيه من عبودية وقيود وأغلال... لا يبقى عنده شك.. أن أي معارضة علنية للاتحاد، ولو كانت منسوبة للحسن، لا يمكن أن تقوم إلا بإيعاز وتشجيع خفي من المسؤولين.

وإذا كان تطور الموقف العربي بثورة العراق، قد جعلهم يعجزون عن الاستفادة من أمثال هذه التعلات لإلغاء الاتحاد نهائياً، فإنهم قد لا يعجزون عن جعلها ذريعة إلى تأجيل المشروعات العربية أو التمحل في تنفيذها، حتى يبرد حماس الشعب نحو هذه الخطوة العربية، ويسوء ظنه بجدواها وفائدتها..

وهذا بالنسبة إلى أقطاب الرجعية اليمنية، يُعتبر أعظم انتصار يحوزونه بدهائهم وعبقريتهم ومغالطاتهم لقادة العروبة الأحرار.

المعوقات الحقيقية

*** مشيئة التألّه تأبى قيام حكومة**

إن لباب الحقيقة في الموقف كله.. أن نكبة اليمن في مدى نصف قرن وشقاءها وحرمانها، لم تكن لعنة نازلة عليها من السماء، ولا حظاً تعساً قذفها به الشيطان، وليست حكاية إفلاس الدولة ولا زكامها ولا عطاسها ولا قلة رجالها... وليست كذلك جهلاً من الحكّام، ولا تعصباً دينياً، ولا خوفاً على استقلال البلاد... وإنما هي في جوهرها مشيئة ثابتة في نفوس الحكّام، وإصرار راسخ متعمد، وخطة عنيدة مرسومة.

ونحن لم نعرف هذه المشيئة عن طريق التنويم المغناطيسي ولا عن طريق البخت أو علم الكف، وإنما تلقيناها كما نتلقى حقائق العلم الذي تلده التجارب والمعامل والدراسات.. وإن الزمن الذي استغرق هذه التجارب لا يقل عن نصف قرن، وإن الذي قام بهذه التجارب، وشهد نتائجها ليس شخصاً منغلقاً في معمله، ولا شاعراً حالماً في خياله، وإنما هو الشعب كله.. وحقل تجاربه هي حياة اليمن كلها بما اكتنفها خلال هذه الفترة من أحداث وخطوب وتقلبات يعجز منها الحصر.

وهذه المشيئة الثابتة تتشبث ببقاء الشعب جاهلاً فقيراً ممزقاً منهوباً منكوباً مستعبداً، قطيعاً لا يرتفع عن مستوى السائمة.

وحدود هذه النكبة في إجمالها وفي طابعها الكلي.. أن الشعب كله: الفرد فيه والجماعة على السواء - لا يملك حق الحياة، ولا حق البقاء على وجه الأرض، لأن الحاكم المطلق يستطيع أن يلغي حياة أي إنسان في الشعب بلا محاكمة ولا إعلان سبب، إما إلغاءً كلياً بالموت، أو إلغاءً جزئياً بالسجن.

وليست العبارة من الدقة بحيث نقول: إن الشعب لا يملك حق الحياة فحسب، لأن مَن لا يملك شيئاً قد يكون له حق السعي إلى امتلاكه... ولكنا في نكبتنا هذه نجد الشعب لا يملك حق الحياة، ولا يملك حرية البحث عن هذا الحق.

وكل الشعب يعرف أنه حينما انطلقت في أفواه بعض بنيه كلمة الحياة المقدسة: "من حقي أن لا يُقطع رأسي إلا

بمحاكمة"، هدّد الحكّام بأنهم سيرتمون في أحضان الشيطان، وسينضمون إلى حلف بغداد، إن لم ينقطع دابر هذه الكلمة.

وكل الشعب يعرف كذلك، إن قائل هذه الكلمة، لو ظفر به الحكّام لردوا عليه رداً عملياً، جزاء هذه الوقاحة، وقطعوا رأسه بلا محاكمة.

ولا يزال هذا التعبير الرهيب غير دقيق أيضاً، لأن الذي يغتصب حق الحياة من شعب ويمنع حرية المطالبة بهذا الحق، قد يقبل أو يتحمل اعتبار نفسه من الناحية العملية غاصباً على الشعب حقه المقدس في الحياة بالقوة وبحدّ السيف..

ولكن الأمر في نكبتنا هذه، يختلف كل الاختلاف، فإن غاصب حقنا في الحياة، يريد أن نعتبره مبعوث السماء لهذه المهمة الكبرى، وأن سلطته الرهيبة هذه، إنما هي حق إلهي مقدس، الكافر بها مغاضب لإله السماء..

تلك هي حدود النكبة في إجمالها، وفي قاعدة ارتكازها، أما في تفصيلها، فإنها كالحياة نفسها، لا يعرف لها حد ولا نهاية، وإنها كالشيطان تجري من ابن آدم في اليمن مجرى الدم.

وكما يدخل الدم إلى كل خلية، وإلى كل عرق وكما يتحكّم هذا الدم في كل خلجة وكل نفس، وكما يغمر كل ذرة من ذرّات الجسم، فكذلك هذه النكبة لا تدع اليمنيين يملكون لأنفسهم (نفعاً ولا ضراً، ولا فقراً ولا غنى، ولا موتاً ولا حياة، ولا لساناً ولا قلماً، ولا فكراً ولا صحافة، ولا تجارة ولا تعليماً، ولا

مدرسة ولا نادياً، ولا فندقاً، ولا صيدلية، ولا مكتبة ولا مطبعة ولا اجتماعاً ولا خطبة، ولا سفراً ولا إقامة، ولا زراعة ولا اقتصاداً، ولا علاجاً، ولا لعباً ولا لهواً، ولا جداً ولا هزلاً، ولا شرفاً ولا عرضاً، ولا طموحاً ولا خمولاً) إلا في حدود مشيئة الحاكم المطلق وفي ظل من موافقته أو رضاه.

وقد سبق لنا معشر اليمانيين... أن قبلنا لحاكمينا أن يكون لهم منصب كمنصب الإله، فتمسكوا بهذه الملكية الرهيبة لحياتنا جملة وتفصيلاً، ولكنا اشترطنا أن يتخلقوا بأخلاق الله، أثناء تمتعهم بهذه الملكية، وهي أن يلزمونا في ظل هذا الرق بنظام لهم يختارونه ويحددونه، وأنهم ما داموا يملكون هذه الحياة، فليتسلموها فعلاً، وليضعوا حدوداً منظمة لسيرها، حتى نعرف ما نأخذ وما ندع، وحتى نعيش في نطاق شريعة كشريعة الله التي حددها للبشر، ليعرفوا منها ما يرضي الرب وما يغضبه، وما يحله وما يحرّمه، وبذلك يستطيع كل إنسان أن يسير في طريق الحياة آمناً من الغضبات التلقائية، والهلكات الفجائية، التي لا يَعرف لها سبباً.

ولكن حكّامنا يرفضون هذا الشرط، رغم تمسكهم بامتلاك حياتنا، ذلك لأن هذا الشرط يلزمهم بنظام يؤدي إلى تكوين جهاز إداري، وهذا الجهاز يؤدي إلى قيام رجال مسؤولين عن إدارة هذا الجهاز، وهذا بدوره يؤدي إلى اعتراف فعلي ببشرية اليمنيين، كما يؤدي إلى المحذور الأكبر.. وهو قيام حكومة فعلية تملك التصرف بشؤون الشعب.

قد يستبعد بعض القرّاء أن تكون هذه هي الفلسفة المنسقة نفسها التي يعيشها حكّامنا معنا..

ولنفترض أن هذه ليست فلسفة واضحة محددة بهذا الشكل، في منطقهم الواعي، ولكن الذي لا شك فيه أنها موجودة في فطرتهم، كامنة في طيات شعورهم، وأن وجود مظهرها الفعلي في حياة الشعب حقيقة، لا يمكن المكابرة فيها، لمن كان يعيش مع الشعب ويتعمّق فهم نكبته.

هذه المشيئة التي تتشبث بملكية الشعب، وتتشبث بالاحتفاظ بمستواه كقطيع، وتصرّ على أن لا يسوده نظام ولا تحكمه قاعدة ولا تقوم فيه حكومة منظمة من أبنائه.. هي العلة الكامنة وراء كل العلل والأسباب، والظواهر التي تبدو للناس كعوامل تعوق تقدم اليمن في تاريخها الطويل، وتعطل كافة المشاريع الإصلاحية التي تظهر ثم تختفي، وتحيا أحياناً ثم تموت، وتظل هكذا بين الظهور والخفاء وبين الحياة والموت، حسب المناسبات، وطبقاً لمقتضيات المناورات المتوكلية.

ولا يوجد أقل أمل في أن تتحول هذه المشيئة أو تتغير، إلا إذا استطعنا أن نفهم قواعد المناورات المتوكلية، وندرس أسباب ظهور المشاريع واختفاءها، وحياتها وموتها، ثم نفضح طريق الألاعيب والزوغان، فيتسلح الشعب بهذه المعرفة، ويستفيد منها، فلا تنطلي عليه الحيل، ولا يخدعه لمعان السراب.

وأهم أصل من أصول المشيئة المتوكلية، كما رأينا - هو الإصرار على أن لا تقوم للشعب حكومة منظّمة، تمثله.. وحينما يخلو وجه البلاد من حكومة مسؤولة.. تتاح الفرصة للمناورات المتوكلية، التي تكر وتفر، وتلعب ألاعيبها في حرية تامة.

وفي موضوعنا الراهن، وهو قيام ميثاق الدول العربية المتحدة سوف يستحيل تنفيذه من الناحية العملية، ما دام أنه لا يوجد في اليمن جهاز حكومي حديث ينفذه، إلا إذا استطاع هذا الاتحاد أن يكون هو نفسه جهازاً حكومياً كاملاً، صالحاً لأن يكون أداة للتنفيذ المباشر داخل البلاد، وهذا أمر يتفق مع أهدافنا العربية، وهو أمنية غالية من أمانينا القومية.

غير أن حكّامنا لا يمكن أن يقبلوه ما داموا لم يقبلوا قيام جهاز حكومي يمني خالص.. ومن هنا يتجلى لنا بشكل واضح، أنهم غير جادون في تنفيذ ميثاق الاتحاد، وأنهم لا يعنون ما يقولونه.

والمسؤولون اليمنيون كائنات بشرية غامضة، لا يُعرف مدى غورها، ولا كنه مخبآتها وافد إليها من خارج اليمن، حتى وإن كان غريباً ذلك لأنها طاقة من الدهاء المعقد، نابعة من أحداث البيئة اليمنية المحلية، ومن صفات هذه الطاقة أنها متحللة من كل القيود، ومن كل القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، التي تواضعت عليها المجتمعات الإنسانية.. وهي كذلك متحللة من كل الالتزامات، سواء منها التزاماتها نحو الجماعات الدولية: عربية كانت أم غربية..

بل إنها أعجب من ذلك كله.. غير مرتبطة بأي قانون معروف في الحياة، حتى القوانين الطبيعية، النفسية منها والاجتماعية، ولا نستطيع أن نشرح هذا كله شرحاً وافياً، إلا إذا نحن اضطلعنا بنبش مخبآت التاريخ اليمني كله، وهذا ما ليس في وسع هذا البحث الصغير.

وإن ما يهمنا هنا أن نضع يد القارىء العربي على الينبوع السحري المجهول الذي تنبثق منه السياسة اليمنية التي يراها الناس في المجال الخارجي، ويعجبون ويندهشون ولا يستطيعون لها تفسيراً صحيحاً.

ولا ريب أن التحلل من كل القيم وكل القوانين، والتجرد من كل الالتزامات حتى الالتزامات الإدارية.. يعطي هؤلاء الرجال السياسيين طاقة من الحيل والألاعيب والمناورات ليس لها حدود.

تلك حقيقة.. والحقيقة الثانية أن الذي يواجه هؤلاء الساسة اليمنين، ويتعامل أو يتفاوض معهم، لا يمكن أن يكون إلا سياسياً يعيش في المجتمعات البشرية، التي تترابط فيما بينها وتخضع لالتزامات ومفهومات وقوانين إنسانية، وكل هذا يقيّده أثناء مواجهتهم وهم غير مقيّدون، ويلزمه وهم غير ملزمون. كما يحدد قدرته على فهمهم، واكتشاف نواياهم، لأن عقليته مقيّدة بمفهومات عامة تجعله يدرس هؤلاء المسؤولين اليمنيين بمقتضاها وعلى ضوئها.. وبينما الساسة اليمنيون يعيشون وراء تلك

المفهومات داخل بيئتهم وداخل أنفسهم، وفي نطاق حديدي من سريتهم الفردية التي قد لا يطلع عليها مخلوق.

يقول المؤرخون:

- إن السلطان عبد الحميد كان يتمتع بشخصية فذة، يستطيع بها أن يُقنع زوّاره الأجانب ويكسب عطفهم ويخدعهم.

ولكن السلطان عبد الحميد رغم ما كان يتمتع به من سلطة في تصريف أمور الدولة، ورغم ما كان يتصف به من استبداد مطلق في الحكم، إلا أنه كان يعيش على رأس دولة منظّمة، وعلى رأس جهاز ضخم، يخضع لقوانين والتزامات، واعتبارات كثيرة، كما أنه يعيش في عصره وفي مفهوماته السائدة لا في القرون الأولى.

وهذا كله يحدد مقدرة السلطان في مجال الدهاء والمناورات..

أما المسؤولون اليمنيون، فهم كما قدمنا متحللون من كل القيود والالتزامات، وهم لا يعيشون على رأس حكومة حقيقية، وإنما يتزعمون فوضى بدائية شاملة، فهم يستطيعون أن يذهبوا مع زائرهم إلى كل مذهب من الخداع، وإلى كل كذب من الوعود، وإلى كل بطولة مسرحية من الحبر والورق، والمواثيق والمعاهدات، والتصريحات الحماسية المدوية من دون أن يلتزموا وراءها بأي التزام عملي حقيقي.

وأعجب من ذلك.. أنهم متحللون من العصر الذي يعيشون فيه، فهم إن شاءوا يعيشون صباحاً في القرن العشرين، ومساء في

القرن الخامس عشر.. يتكلمون مع الزائر الوافد بلغة عبد الناصر، ومع الشعب بلغة الحاكم بأمر الله.

وهم إلى جانب أنهم متسترون داخل نطاق مفهوماتهم الفريدة، فإنهم لا يتيحون للمعارض الزائر قدرة على امتحان صدقهم، أو اكتشاف ألاعيبهم، لأنهم فرضوا عزلة الشعب اليمني عن العالم وبالأخص العالم العربي، وجعلوه يعيش خلف ستار متوكلي، متين سميك يبلغ سمكه عدة قرون.

وهذا يفسر لنا مرة أخرى السر في أنهم صمموا على جعل مركز اتحاد الدولة العربية في ميناء الحديدة، خوفاً من أن يتغلغل أعضاء الاتحاد العربي إلى داخل البلاد، ويختلطوا بالشعب.

ولما نجحوا في قبول الجمهورية العربية المتحدة لهذه الخطوة.. طالبوا بما هو أبعد مدى، وهو نفي مجلس الاتحاد من اليمن إلى القاهرة، وبهذا نجحوا في الاحتفاظ بما وراء الستار المتوكلي نجاحاً تاماً، واستطاعوا أن يخلقوا حاجزاً حديدياً بين قرارات المجلس بالقاهرة ومجال تنفيذها داخل اليمن: "فكأننا يا بدر، لا رحنا ولا جينا".

ألوان من الألاعيب المتوكلية

لقد أثبتنا فيما سلف، أن للحكام المتوكليين مشيئة ثابتة، تستهدف الاحتفاظ بأوضاع السوء في اليمن كما هي، وأن هذه المشيئة ليست نتيجة جهل أو آراء دينية أو جمود، وإنما هي ثمرة للإصرار الواعي، والنزعة الأنانية الاستعلائية التي لا تلين ولا تتراجع.

ونحن نريد الآن أن نقول: إن سر نجاح هذه المشيئة أنها مشيئة متسترة لا تكشف وجهها، ولا تعلن عن نفسها، حتى لا تتعرض لعواقب رد الفعل من جانب الشعب، أو من جانب العرب.

لا يقولون: لا

حينما قام الحكم المتوكلي.. كان يعلن عن أهداف وطنية دينية، ليس هذا مجال سردها، ولكن المهم أن الذين ناضلوا في سبيل قيام هذا الحكم من قادة اليمن وأبطالها جنباً إلى جنب مع الحكام المتوكلين.. ظلوا منذ استقر هذا الحكم قبل عشرات السنين يناشدون المسؤولين إنجاز ما وعدوا به من أهداف وبرامج.

ولكن المسؤولين ظلوا يسرفون ويماطلون وينتحلون المعاذير تلو المعاذير، حتى كسبوا عشرات السنين من المُطل والتسويف، وحتى نفدت أعمار المطالبين والناصحين، وماتوا ضحايا الحيرة والكمد.

وقد كان أدهى أسلوب من أساليب هؤلاء الحكّام، أنهم لا يقولون: "لا" في أي مجال من مجالات المعارضة والجدل، والأخذ والرد، ولا سيما عندما يكون مخاطبوهم على شيء من القوة والخطر..

بل يظهرون لمحدثهم، أنهم أشد إقتناعاً منه بما يقول، وبذلك يلجمون لسانه، ويجمدون عواطف الحماس في صدره، فلا يستطيع أن يلوم، ولا أن يغضب، ولا أن يحكم، ولا أن يتخذ

أي قرار ضدهم، كما لا يستطيع أن يجعل من نفسه رقيباً دائماً على رؤوسهم، وبذلك تتحلل نفسيته وأهدافه تحللاً تدريجياً، فيموت إما موتاً حقيقياً أو موتاً معنوياً.

لا يواجهون أحداً بسوء القول

وقد يفد إليهم وافد من رؤساء القبائل، وزعماء البلاد، وهو ثائر مغضب تجيش في صدره هواجس الثورة والحنق، فإذا قابل هؤلاء الحكام، وهم المسؤولون عن أسباب ثورته، فلا يلبث هذا الوافد الثائر أن تذوب ثورته وتتلاشى، يغمرونه بالابتسامات والقبلات، وعبارات الحنان والعطف على قضيته، فلا يلبث هذا الوافد الثائر أن تذوب ثروته وتتلاشى إرادته، وتسترخي رجولته، فإذا هو وديع مسالم، خانع غير مصدق لنفسه، ولا لموقفه، ولا لقضيته، ولا لتجربته التي يعيشها.

ويغادر المكان الشريف، وهو مسحور متجمّد النفسية، لم يظفر من الحكّام بشيء محسوس في يده، ولم يجد عندهم حلاً حاسماً لمشكلته، ولكنه يحس في أذنه رنين كلمات ضخمة من الوعود المطاطة: ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [سورة النور: آية ٣٩].

ويعود هذا الزعيم إلى قبيلته أو قريته شخصاً آخر غير مَن كان. إنه يبشّر جماعته بما سمعه من حكّام البلاد، ويفخر بما وجده عندهم من عطف وإعزاز، ولهفة على العدل والإنصاف فإذا رأى مشكلته لا تزال قائمة في رأي جماعته، ردّ المسؤولية في ذلك على الموظفين الصغار، الذين لا حول لهم ولا طول.

وأعجب من ذلك، أن هؤلاء الحكّام قد يستقبلون شخصاً يريدون له الموت، أو يضمرون له الإيقاع في كارثة. وقد يعرف هو ذلك، ولكن الحكّام المتوكلين الدهاة لا يواجهونه بسوء القول ولا يستفزّونه بالعبارات المثيرة، وقد يصرخون في وجهه يصيحون، ولكنهم يمزجون أسلوب التعنيف بما يشبه لغة الآباء، حينما يحنقون على أفلاذ أكبادهم.

هذا الأسلوب نفسه ضرب من التخدير للتضحية، يشبه عمل الطبيب حينما يعطي المريض حقنة المخدر، حتى لا يحس بآلام العملية الجراحية.

لقد كان هَمُّ دهائهم الأكبر، أن لا يثيروا غضب الشخصيات اليمنية بطريقة استفزازية مباشرة فيلجأون إلى تغطية نواياهم بالمخالتة والمراوغة، والدعوات الصالحة.

وقد فعل هذا الأسلوب في إذلال الشعب وتأجيل انتفاضاته ما لم تعمله المذابح والسجون والقيود.

إن المخاتلات المتوكلية التي حذقوها وتدربوا عليها.. تُرينا أن هؤلاء القوم لا يظهرون مواقفهم العدائية ضد أحد، حتى ولو كان موظفاً تابعاً لهم، وإنما ينتقمون ويبطشون بطريق المخاتلة والخداع، حتى يظفروا بضحيتهم ظفراً تاماً، وتصبح لا حول لها قوة، وحينئذ يعلنون فقط موقفهم الحقيقي منها، وهي تُرينا أن هؤلاء الحكّام يتخذون من العهود والمواثيق، ولغة الود والمجاملات، وسائل لتخدير ضحاياهم، حتى يتجنبوا غضبها، ويتيحوا لأنفسم فرصة الانتقام منها، وهي آمنة مخدّرة مستسلمة.

وهي تُرينا أيضاً، أن هؤلاء الحكام يتمتعون بموهبة رائعة لتمثيل مختلف الأدوار المسرحية حتى يبلغ بهم الأمر، أنهم يبكون وينتحبون أمام عدوّهم، ويذرفون الدموع السخينة ختلاً وبهتاناً، ليخدعوا هذا العدو أو ذاك.

وهذه الأحداث تُرينا كذلك، وتكشف سر نجاح مشيئتهم في الإبقاء على أحوال السوء في اليمن، لأنهم يسترون هذه المشيئة، سواء حينما يحاولون القضاء على خصومهم، أو حينما يحاولون القضاء على مشاريع الإصلاح.

الخداع للعرب، بعد الخداع للشعب

وقد ظلوا يستخدمون هذا السلاح الجبار.. سلاح التخدير والخداع داخل البلاد واستطاعوا به أن يقضوا على جيل بعد جيل، حتى انكشف للشعب، فتلاشى أثره وافتضح أمره، فلم يعد سلاحاً يخدع الناس، وإنما أصبح أسلوباً رخيصاً من الملق المفضوح، وعرف الحكّام هذه الحقيقة المرة، ونفضوا أيديهم من بذل الجهود في خداع الشعب، لأن الشعب قد صحا واستيقظ، واكتشف هذه الألاعيب، بعد أن أضاعت عليه نصف قرن من حياته، فلم يبقَ للحكّام إلا أن يتجهوا بجهودهم وألاعيبهم شطر البلاد العربية، وهم يأملون أن يخدعوا البلاد العربية، أكثر من نصف قرن، لأنها لن تحتك بهم، ولن تمتحنهم حتى تكشف صدقهم أو كذبهم، وإنما قد تكتفي منهم بالأقوال والتصريحات والمواثيق والتصويت في المجالات الدولة.

وبذلك يتوهمون مخدوعين، أنهم عن طريق الدعاية لأنفسهم في البلاد العربية سيُرهبون الشعب، أو يخدّرونه بطريقة جديدة، لم يجرّبها الشعب ولا العرب من قبل.

وقد كان الحكّام اليمنيون في بداية الأمر يهابون العرب، ويحسبون حساباً كبيراً لخطر نهضتهم، وفتنة مبادئهم وتأثيرها على مصير نظام الحكم في اليمن.

ثم وجدوا أخيراً أو هكذا بدا لهم أنه من السهل عليهم القيام بمناورات في السياسة الخارجية للتمويه على الحركة العربية التحررية، والتظاهر بالسير في ركابها.

فإذا بهم.. وهم المغرقون في الرجعية - وقد أصبحوا في رأي الصحافة والإذاعة العربية جنباً إلى جنب مع أحرار العرب وثوارهم، من دون أن يضطروا إلى أي تغيير أو إصلاح أو استرضاء للشعب اليمني داخل بلاده.

ومن ثم يصبحون حينئذ، أكثر جرأة على الشعب، وإقداماً على البطش به، بعد أن كسبوا حصانة جديدة.

ونحن نقرر أن حكّام اليمن مخطئون في وهمهم، لأن قادة الأحرار العرب لن يقبلوا أوضاع اليمن كما هي بأي حال من الأحوال!..

لماذا ينخدع الناس في الخارج بحكّامنا ؟!

لأنه منذ فجر النهضة الحديثة في بلاد العرب.. كانت المشكلة الكبرى في الأقطار العربية الناهضة، هي الاستعمار الذي شغل كل مشاعر الجيل العربي الحديث، حتى سادت فكرة عامة عند العرب، أن جميع آلامهم ومحنهم ومشاكلهم الصغيرة والكبيرة، إنما هي من خلق الاستعمار.

وهذه تعبئة روحية ضد الاستعمار تستحق الإعجاب، لولا أنها بالغت في التركيز، حتى انحرفت عن المنطق السليم، وأغفلت الأصول والعلل التي جلبت الاستعمار، وكانت سبباً في تسلطه علينا!..

وقد كان الاستعمار، وهو الذي كانت في يده مصائر العرب.. يشجعهم على هذا التركيز الشديد ضده، وذلك ليصرفهم عن النظر إلى الأسباب والقواعد التي يقوم عليها وجوده في بلادنا.

والعجيب أنه بينما كان الاستعمار يُبيح للدعايات والحركات الوطنية أن تهاجمه وتناضله وتتظاهر ضده. كان يحمي الحكّام العرب بالدساتير والقوانين والقوة المسلحة، حتى لا يستطيع أحد أن ينال منهم منالاً، ولم يكن فقط يحمي حكّام العرب الخاضعين له والمرتبطين معه، بل كانت الدساتير التي نشأت في ظل الاستعمار، تحمي كذلك رؤساء الدول العربية الأخرى

المستقلين، كما كانت هذه الدساتير تحمي التجزئة للبلاد العربية، وتجعل منها شيئاً قدسياً في وعي الأجيال العربية. فلما فشلت هذه الدساتير، وتساقطت أصنامها، وتغلّب عليها الشعور الفطري بالوحدة العربية.. أسفر هذا الاستعمار عن وجهه، واضطر أن يحمي التجزئة وأقطابها بقوة الأسطول السادس.

وحينما كان العرب يكابدون مظالم الاستعمار، ويرونه المحنة الوحيدة في الحياة.. كان هناك قطر عربي واحد يتمتع - كما يظن العرب - بالاستقلال التام.

وقد أضفى الخيال العربي المنكوب بالاستعمار، على الأرض اليمنية المستقلة في زعمهم زخرفاً من الأحلام، وسعادة من الأوهام، وبطولة لقادتها الحكّام، وجنة تجري من فوقها ومن تحتها بركات الأصنام.

ومن هنا كان من اليُسر على حكّام اليمن، أن يواصلوا خداع الرأي العام العربي، ويؤكدوا نظرياته الخاطئة عن اليمن.

كان الاستعمار وأذنابه الحكّام في البلاد العربية يضعون الصعوبات والعراقيل في سبيل أي عربي، يريد زيارة اليمن، وكانت الحكومة اليمنية تؤيد وتضاعف هذه الصعوبات فاستطاع الحكّام اليمنيون أن يعيشوا في معزل عن العرب، في حين ظل العرب مخدوعين باليمن المستقلة، لا يعرفون عن حقائق الأوضاع فيها شيئاً.

"سجن الضيافة"

أي زعيم عربي، شديد العناد، قوي الإرادة يستطيع أن يتغلب على الصعوبات، ويزور اليمن.. فإنه رغم وصوله إلى اليمن جغرافياً، يبقى وهو في اليمن.. بعيداً عن الشعب اليمني لا يعرف كنه حالته ولا أسرار حياته!..

إن حكومة اليمن لم تسمح حتى الآن لمخلوق واحد، ولا لنفسها ببناء فندق واحد في اليمن كلها، يستطيع الزائر القادم من الخارج، أن ينزل فيه، فلا بد للزائر أن ينزل ضيفاً على الحكومة أي على سجنها وسجّانها.. وهي تخيف الشعب وتحذّره من الاتصال بالقادمين من الخارج، فيظل الزائر محاصراً في قصر الضيافة محاطاً بالجواسيس والعيون، وبذلك لا يستطيع أن يرى في اليمن شيئاً.

هذا بالإضافة إلى أن اليمن ليس فيها أية وسيلة للتسلية، فلا سينما ولا مسرح ولا ناد ولا حديقة ولا متحف ولا مكتبة، ولا صحافة ولا مجتمع عام، ولا أية وسيلة للترويح عن النفس مما يعرفه الناس في العصر القديم أو الحديث.

ولا شك أن القارىء سيرى في إطلاق اسم "السجن" على دار الضيافة بعد ما أوضحناه وأوجزناه.. تسمية معتدلة، ورفقاً باليمن ومجاملة لسمعتها أي مجاملة!

ولكنه مقابل الضيق الشديد، الذي يتورط فيه الزائر القادم إلى اليمن، توجد هناك أضخم وأرفع وسيلة لإرضاء نفس الضيف المحظوظ، إذا قُدّر له أن يظفر بها، وهي استقبال الإمام له، وترحابه به، والإغداق عليه من المجاملات والابتسامات، وعبارات التكريم التي قد لا يحلم أن تُوجّه إليه من عاهل البلاد.

إن الملوك عادة، ورؤساء الدول.. لا يستقبلون الزوّار والسيّاح العادين، فإذا جاء الزائر لليمن، ورأى أن ملك البلاد نفسه.. تولى استقباله، وأجلسه في صدر مجلسه، فلا شك أنه سيعتبر ذلك فخراً عظيماً له، ويداً كبرى يسديها إليه الملك، وسينسيه هذا الفخر أنه يعيش في سجن، ويضع في عينه غشاوة تمنعه من النظر إلى الشعب، والتأثر بمعالم البؤس والشقاء والخراب، والإهمال والتأخر، التي تطالعه في كل مكان يراه. إنه لن يرى غير الشخصية الكبرى، التي تستقبله وتكرّمه، ولن يرى غير المكانة الضخمة التي كسبها في المقام الشريف، وسيخرج من اليمن، وليس على لسانه إلا هذه الذكرى الرائعة.

على أنه ليس كل الزوّار كما أسلفنا.. فإن فيهم شخصيات أقوى من الضيافة وأكبر من سحر الاستقبال والترحاب، وهؤلاء هم الذين تدفعهم غيرتهم على الشعب العربي في اليمن إلى تقديم نصائح ومقترحات إلى حكّام اليمن تدعوهم إلى الإصلاح والتطور، والأخذ بيد الشعب. وهؤلاء يجدون عند حكّامنا الدهاة أسلحة أخرى للتلاعب بعقولهم، فإنهم بمجرد أن يقدموا نصيحة

أو اقتراحاً، أو مشروعاً، أو يعلنون عن أسفهم لسوء الأوضاع في اليمن، لا يلبثون أن يجدوا عاهل البلاد أشد منهم حماساً ولهفة إلى تحقيق نهضة اليمن، كما يجدونه معجباً بنصحهم، فرحاً به، وقد يثني عليهم وعلى مقترحاتهم، وقد يبالغ في إطرائهم، ويمنحهم شهادته الملكية، بأنه لم يلقَ في حياته مَن يواجهه بمثل هذه الدرجة الرفيعة من التوجيه والإقناع، وأنه لو صادف رجالاً أمثالهم في الماضي، لكانت اليمن قد تطوّرت منذ زمن بعيد.

فيخرجون من المقام الشريف، وعلى رؤوسهم أكاليل الغار والظفر، وهم لا يخالجهم شك في وطنية العاهل العظيم ورغبته الشديدة في الإصلاح، فإذا عادوا إلى البلاد العربية، فلا يكون لهم إلا الإسهاب في نجاحهم باليمن، وقدرتهم على تطوير عقلية حكّامها وإقناعهم، بما لم يكونوا يعرفونه من قبل، ثم الإشادة بتواضع الملك وإكرامه وبرّه، والإعلان للناس بأن اليمن على أبواب تطور كبير.

وهم عندما يخرجون من اليمن، تنقطع صلتهم بها، اللهم إلا صلة الصداقة بالإمام التي يظلون يتحدثون عنها، ويعتزون بها، ثم هم بعد ذلك لا يعرفون ماذا حدث لليمن، وهل تقدمت أم تأخرت؟.. وهل عاشت بعد زيارتهم أو ماتت؟.. ذلك فريق من الزوّار، وهناك فريق آخر، أقوى منهم وأشد إلحاحاً وأصلب إرادة.. وهم الذين لا يقتنعون بمجرد ترحيب الإمام بنصائحهم ومقترحاتهم، وإعجابه بشخصياتهم، بل يظلون صامدين ملحّين

على التنفيذ. وحتى هذا الفريق من الزوّار الأشداء، لا يعدم حكّامنا الدهاة وسيلة لتهويشهم ومغالطاتهم، إما بالتسويف والوعود المطاطة، وإما بالتعلل بالمعاذير التي أسلفناها:

الإفلاس – معارضة الشعب وجموده – الخوف من الاستعمار إلخ.. فإن أفلحوا في هذه المعاذير، واستطاعوا صرف الزوّار الثقلاء، وإلا بدأوا في مضايقاتهم.. فإن فشلت كل هذه المحاولات، ووجدوا أنفسهم محرجين أمام هذا الفريق العنيد من الضيوف، انتقلوا إلى مرحلة من المناورات أدهى وأمر.

وتلك المرحلة، هي التظاهر بالموافقة على أي مشروع، ولا يقف الأمر هنا عند مجرد الكلام والوعود المعسولة، بل إنهم يبدأون في التنفيذ فعلاً، وقد يعتمدون المبالغ الضخمة للتنفيذ وينفقونها فعلاً، ولا يبالون بضياعها.. وبعد ذلك إما أن يتوقفوا قبل نهاية المشروع ويخلقوا أسباباً لتعطيله وإما أن يمضوا فيه إلى آخره، ولكنهم لا يطول صبرهم عليه، إلا ريثما تنصرف عنهم عوامل الضغط.

وهنا على القارىء أن يرجع إلى ما أسلفناه تحت عنوان "ينبوع السياسة المتوكلية" فسيجد التطبيق العملي لتحلل الرجعية، من كل ما تواضع الناس عليه من اعتبارات.. سيجدهم هنا يقولون ويكذبون، ويعدون ويخلفون، وينفقون أموال الدولة، لمجرد المغالطة، ويهدمون المشاريع بأيديهم، وبكل سهولة ويسر، لأنه ليس هناك مسؤولية يتحملونها إزاء أحد. بل وليس هناك

إدارة تحمي المشروع من تخريبهم وألاعيبهم وسيجد أعجب من ذلك كله، أنهم يحاربون مشروعات قد تكون ضرورية جداً، ونافعة جداً لأصحاب العرش، وقد تكون مربحة من الناحية المادية، ولكنهم يرفضونها أو يهدمونها لأسباب لا تستطيع أن تهتدي إليها عقول البشر.

عهود من النهضات الميتة

تحدثنا عن ألوان شتّى من المناورات المتوكلية، وبينّا الطرق التي بها ينخدع الناس لحكّامنا، والآن نود أن نسرد بعض الأمثال، وسنجد سلسلة لا نهاية لها من هذه الأمثال التي تسجل حياة المشروعات وموتها.

غير أنّا لا نستطيع أن نأتي هنا، إلا بالقليل جداً، لأنّا مضطرون للإيجاز.

الطيران

لعله ليس إلا القليل جداً من الناس، يعرف أن الطيران في اليمن، عُرف قبل ثلاثين عاماً، وأنه في هذا التاريخ كان يوجد طيارون يمنيون.

وقد كان يظن الذين أقنعوا الإمام يحيى، أن اليمن قد بدأت عهداً من الطيران قد يسبق البلاد العربية كلها.

ونفذ الإمام المشروع، وخضع للضغط، ودرّب طيارين، واشترى الطائرات، ولكن ما كاد يقع حادث واحد، مات فيه

بعض الطيارين، حتى انتهزها الإمام فرصة، وألغى وجود الطيران في اليمن، حتى آخر أيام حياته.

الآبار الإرتوازية

وكان بعض المفكرين يطالبون بإدخال الوسائل الميكانيكية، لاستخراج الماء من جوف الأرض اليمينة، ومنهم سيف الإسلام محمد الذي توفي غرقاً في البحر.

فقال له أبوه: إننا لا نريد أن نفتح هذا الباب خوفاً من أن يعرفه اليمنيون، ملاك الأرض، فيستفيدون من هذه الوسائل الحديثة، وترتفع قيمة الأرض، فلا نستطيع بعد ذلك أن نتوسع في شراء الأراضي لأولادنا.

ومرّت الأيام، واشتد الضغط على الإمام يحيى كي يشتري آلة ضخمة لتفجير آبار إرتوازية.

واضطر الإمام يحيى أن يدفع ثمناً لهذه الآلة، ولكنه لم يستقدم لاستخدامها الخبراء الأكفاء، بل وكّل الأمر إلى مهندس زائف مرتزق كان في اليمن، وأخذ يحاول البحث عن المياه بأساليب فاشلة ومن هنا استطاع الإمام أن يقول للناس:

– ألا ترون الأجانب ؟.. دائماً يغشوننا، ويكذبون علينا، وأن الأولى أن نعيش كما كنا في الماضي.

ولكنه بعد القضاء على هذا المشروع العام، وتحطيم الأداة الضخمة التي اشتراها بمبالغ كبيرة، قرر استخراج الماء بوسائل

ميكانيكية أخرى، وعلى أيدي الأجانب أيضاً، ولكن في مزارعه الخاصة فقط.

بعثة من العراق

قبيل الحرب العالمية الثانية كانت تقيم في العراق حكومات وطنية مخلصة، وكان من دلائل هذا الإخلاص اهتمامها الجدّي باليمن، وقد بعثت حينئذ مندوباً عنها، يعرض على الإمام رغبة العراق ولهفته في الأخذ بيد اليمن في جميع مجالات النهضة والتقدم.

وقد كان هذا المندوب من الفريق العنيد، وهو السيد ثابت عبد النور، فأقام في اليمن إقامة طويلة، وظل يلحّ ويضغط، ويصبر ويتحمل، ويناقش ويحاول، حتى أحرج الإمام يحيى، وجعله يقبل كثيراً من المشاريع الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وأن يكتب بخطه أوامر متعددة للتنفيذ. احتفظ بها السيد ثابت، كما استطاع أن يحصل على موافقة الإمام يحيى على استقدام بعثة عسكرية يرأسها الجنرال إسماعيل صفوت، وكان من كبار رجال الجيش يومئذ.

وقدمت هذه البعثة العسكرية الضخمة ورحّب بها الإمام يحيى أيما ترحيب، وأتاح لها شيئاً من فرص العمل في الجيش ولكنه كان يدبر في نفسه القضاء على مهمة هذه البعثة من أساسها بمختلف الوسائل.

وقد طلب رئيس البعثة من الإمام يحيى، أن يسمح بتدريب كتيبة نموذجية، تجهزها حكومة العراق بكل ما يلزم لتكون مثلاً أعلى أمام الجيش اليمني، وتظاهر الإمام يحيى بالقبول والترحيب وبدأت هذه الكتيبة في التدريب، وارتدت الملابس العسكرية الحديثة التي أهدتها حكومة العراق..

وراح رئيس البعثة يعد العدة لحفلة عسكرية يحضرها الإمام، ويستعرض الكتيبة بملابسها وتدريباتها الحديثة.

وكان رئيس البعثة يظن أن الإمام سيهلل ويكبّر، عندما يرى مظهرها المشرف.. ولكنه فوجىء بالإمام يحيى يضج ويصرخ غاضباً على مظهر الكتيبة وملابسها الحديثة، متذرّعاً بأن هذه الملابس من شأنها أن تمنع على الجندي حركات الصلاة!..

وتوالت حركات التخريب ضد البعثة العسكرية العراقية، ورغم صبرها الطويل سنين عديدة إلا أنها خرجت من اليمن مقهورة مغلوبة، لم تحقق من مهمتها شيئاً يذكر!..

وماتت مشاريع السيد ثابت عبد النور كلها، رغم الأوامر الرسمية التي استصدرها، واحتفظ بها، وبشّر العالم العربي على أساسها بأن نهضة شاملة، قد بدأت في اليمن!..

ملح الصليف

ولعل الكثيرين من الناس، لا يزالون يذكرون الضجة الكبرى التي قامت تبشر الشعب العربي في اليمن، بمشروع

استخراج ملح الصليف. وقد أقاموا لافتتاح هذا المشروع حفلة كبرى، استقدموا فيها لأول مرة الصحفيين من عدن. وقد أخذت الصحف في عدن تعلن بحماس أن نهضة شاملة قد بدأت في اليمن، كما أخذت تُسهب في وصف هذا المشروع.

ولم تكن تعلم هذه الصحافة، أن ذلك المشروع إنما هو كسائر المشاريع التي سبقته لمجرد الإعلان والدعاية، وتخدير عزيمة الشعب وأنه علاوة على ذلك وسيلة وحيلة، يتذرّع بها بعض المسؤولين لابتزاز مال الدولة، وتحويلها إلى البنوك الأجنبية، وإلى اقتناء العمارات والعقارات الحرام!..

وفعلاً... وبمجرد أن ضاعت وتبددت حوالي عشرة ملايين ريال من ثروة البلاد لإعداد هذا المشروع - ما لبث هذا المشروع أن مات موتاً فجائياً، حتى أصبح وليس له وجود!..

والحكومة اليمنية حسب عادتها لا يهمها هذا الخسران الفادح، ولا هذه التضحية بثروة البلاد لأنها أولاً: كسبت فترة من الزمن في خداع الشعب وتخديره، وثانياً: إن أبطالها كسبوا مغانم كثيرة من وراء هذا التبديد، وثروات طائلة ليس هذا محل بيانها.

والآن أشعر بأن الاستمرار في سرد المشروعات الزائفة لن ينتهي، إلا بعد أن ينتهي صبر القارىء واحتماله.. ولذلك سأكتفي بذكر فترات لامعة، في تاريخ المناورات المتوكلية.

إن بعض الناس قد لا يستطيعون الرجوع إلى الماضي، ولا يستطيعون تذكره والاستفادة منه، وقد لا يعرفون أن عهوداً من

الدعايات، والنهضات قد طالعتنا بها الحكومة المتوكلية، وبشّرت بها الشعب كما تطالعنا الآن بميثاق "الدولة العربية المتحدة"!.. وأن الشعب الطيّب القلب، كان قد سبق له أن فرح، وتحمس للعهود السابقة، ربما أكثر من فرحه بميثاق الاتحاد، لأنه كان غراً ساذجاً غير مجرب..

وسنعرف أن كل عهد يخيب فيه أمل الناس، ينتقل بالشعب إلى مرحلة جديدة من الوعي أفضل من سابقتها.

بعد الحرب السعودية

وأول ما سنذكره، هو العهد اللامع الذي كان ينتظر الناس بعد هزيمة اليمن في الحرب السعودية الإمامية.

لقد كشفت هذه الحرب عيوب الحكم المتوكلي، ومدى ما يحمله في طياته من أسباب الفوضى والفساد والطغيان، وأخذت الصحف العربية، تتهكّم باليمن وتهاجمها هجوماً لاذعاً، وانتشرت هذه الصحف قليلاً في اليمن، وانزعج المسؤولون لانهيارهم أمام القوات السعودية، وخذلان الشعب لهم، وسقوط مناطق يمنية واسعة في أيام معدودة.

فأخذوا يتأوهون ويتحسرون على ما فات، ويكيلون الوعود للشعب، بأنهم سيقضون على أسباب الظلم والفساد، وسيحققون للشعب كل أمانيه، بمجرد أن تضع الحرب أوزارها.

وصدق الناس وأيقنوا أن الدرس الرهيب، الذي تلقاه حكام اليمن في تلك المحنة، سوف يدفعهم حتماً إلى تغيير الأوضاع وإزالة كل أسباب التذمر.

وانتظر الناس بعد الحرب طويلاً من دون أن يجدوا شيئاً من التغيير، ومن يومئذ وُجدت الخميرة الأولى لحركة اليمنيين الأحرار، وأخذت تنمو رويداً رويداً.

المجلس النيابي

تأسس مجلس ضخم من كبار رجال اليمن للإشراف على إصلاح الدولة المتوكلية من جميع النواحي، وذلك برئاسة ولي العهد السيف أحمد (الإمام الحالي) في عهد الإمام يحيى.

وقد ظن الناس أن اليمن قد دخلت في عهد جديد، ولكنها سرعان ما انكشفت الحقيقة، وتعطل المجلس، وانتشرت لتبرير هذا التعطيل رواية تقول:

- أن السبب كان هو الخلاف بين نزعة الإمام يحيى المحافظة، ونزعة ابنه أحمد المصلح المتحرر.

وأسدل الستار على هذا العهد الميت عند مولده.

ميلاد الجامعة العربية

وجاء العهد الأخير الأكبر، عهد الجامعة العربية.. فقد كان الشعب كله إيمانٌ بأن اليمن لا تستطيع أن تعايش الجامعة العربية إلا إذا عاشت معها في القرن العشرين.

ولكن اليمن تعايشت مع الجامعة العربية، رغم أنها لا تعيش في عصرها، ولم تتقدم اليمن خطوة واحدة على يد الجامعة، بل على العكس، كانت الجامعة لوناً جديداً من ألوان التضليل، ولا مكان للحساب مع الجامعة، وقد أصبحت معروفة عند الشعب، حتى أن مجرد ذكر اسمها يثير مشاعر الإشفاق.

عبادة الميكادو

وتحرك سيف الإسلام الحسين، وهو العالِم الورع الذكي الألمعي، الموثوق به ثقة عمياء عند والده، فقام برحلة طويلة شرقاً وغرباً في أنحاء العالم، وقال الناس: إن عهداً جديداً سيبدأ لأن أقطاب العائلة المالكة حينما يعرفون نهضات الشعوب يستطيعون أن يدركوا الطريق إلى نهضة اليمن، كما سوف يقنعون والدهم الإمام يحيى.

ولكن السيف الحسين، بعد رحلة سنين عديدة في الخارج، كلفت الدولة مبالغ ضخمة، عاد وهو يصرح لمستقبليه بأن أعظم شيء أعجب به في حياة الأمم الحديثة هو عباة الشعب الياباني، لإمبراطوره الإله المياكادو!. فكان هذا الأمير بعد رحلته كالأفعى سقيت سمًا.

بعثة الدجاج المصرية

ونهض أمير آخر كان يبدو للشعب أكثر تحرراً من أخيه الحسين، وهو الأمير سيف الإسلام عبد الله، فقام برحلته

المشهورة إلى مصر. وقد أثار سفره من الآمال في نفس الشعب أضعاف ما أثاره السيف الحسين، لأن هذه الرحلة تتم في عهد الجامعة العربية، وفي مركز إشعاع العروبة، بالقاهرة.

وقد أحسن الظن بهذا الأمير حتى الأحرار، وشجعوه حسب عادتهم في تأييد الخصوم، على خطواته التي أعلن عنها، وبعثوا فيما بعثوه من تأييد، بقصيدة جاء فيها:

أنت صوت الشعب اليماني المدوي ... أنت أقوى أحداثه الرنانة
أنت في صدره الشعاع الذي حر ... ك وجدانه، وهزّ كيانه

وقد التف ممثلو الأحرار بالقاهرة، حول الأمير المذكور ولكن سرعان ما اكتشفوا في الأمير عبدالله خصائص الرجعية الاستغلالية العريقة، وأعلنوا ذلك إلى أخوانهم الأحرار في صحفهم التي كشفوا بها حقيقة ذلك الأمير، وتحقق فعلاً ما قرره، فإذا بالأمير الخطير، يعود بعد رحلة طويلة، هرّب فيها أموال الدولة إلى البنوك، وهو لا يحمل في جعبته إلا مشروعاً لبعثة الدجاج المشهورة.

نعم، بعثة الدجاج، وليس هذا هزلاً أو تندراً، فإن الأمير استنبط من نهضة الشعب المصري كلها مشروعاً لتربية الدواجن في مزارعه الخاصة.

ومرة أخرى، ذهب إلى الخارج، وعاد ومعه البعثة الأميركية لاستنباط البترول، وقد عارض الأحرار هذه البعثة وأحبطوا مشروعها في حينها.

المجالس الشكلية

وانتهى عهد الإمام يحيى بثورة الشعب ضده، وقيام حكم دستوري وسقط هذا الحكم الشعبي في أسابيع، وانتصر الإمام أحمد بمعونة ملوك العرب.

وظن الناس أن ملكاً يخلف أباً قتله الشعب، وثار على نظام حكمه الاستبدادي الرجعي.. لا بد أن يفكر في أسباب ثورة الشعب ويتجنّبها، ويختطّ سياسة مرضية للشعب.

أعلن الإمام أحمد في أول عهده، تأليف مجلس شورى، ومجلس وزراء، وتعين الأعضاء في المجلس الأول من رجال الشعب، وفي المجلس الثاني من سيوف الإسلام أخوة الإمام.

ورغم أن هذا التشكيل مهزلة، إلا أن الناس تعلقوا بعظم العبرة.. عبرة الثورة، التي يجب أن تكون حافزاً حاسماً.

وانتظر المؤملون والحالمون، ودقت الطبول في داخل اليمن وخارجها.. إن عهداً جديداً قد بدأ في اليمن.. ولكن المجلسين الموقرين، لم يجتمع أي منهما بأعضائه إلا مرة واحدة كانت هي الأولى والأخيرة، ولم يصدر مرسوم ولا قرار في عمر هذا العهد كله، بل ولم يجلس وزير واحد على مكتبه ساعة من نهار.

ولكن الوزارة ظلت قائمة في طبول الدعايات العربية، التي كانت تظللها يومئذ سلطة الملوك، يحف بها الإجلال والإكبار، والمشاريع الخيالية المفتراة.

ومنذ خرج سيف الإسلام عبدالله لأول مرة، كانت كلما قامت وزارة في مصر، تقدمت اليمن واتفقت مع الوزارة على معاهدة ما، أو مشروع أو بعثة من الخبراء، يطلب استخدامها في اليمن.

وتحتشد الوزارة المصرية لهذا الطلب، وتعده، وتقتله درساً، فإذا ما تقدمت به إلى الحكومة اليمنية، ألفتها غير جادة، ودفنت مشروعها في الأرشيفات.

الإتفاقية الألمانية

واندلعت الثورة العربية الكبرى في ٢٣ يوليو، وأسقط في يد حكام اليمن واهتزت الأرض تحت أقدامهم..

وقالوا: لا بد من تدبير وسائل الرخاء، وتفجير الأرض اليمنية لاسترضاء الشعب..

وخرج سيف الإسلام الحسن رئيس الوزراء يومئذ إلى مصر متجهاً إلى إيطاليا فألمانيا وحمل في جيبه نماذج لمعادن اليمن وأحجارها وتربتها.. وقتل الخبراء الألمان بحثاً وقتلوه، وذهب إلى اليمن وجاء، ثم ظفر بتوقيع الإمام على أول إتفاقية لاستنباط معادن اليمن، ومنها البترول.

ودقت طبول الدعاية في كل مكان.. إن عهداً جديداً من الرخاء والتطور قد بدأ !..

وصدقت الشركة الألمانية الساذجة هذه الطبول، وقدمت المعدات، واعتمدت مبالغ طائلة، وأخذت تباشر عملها في اليمن، فإذا بها تواجه ما لا عهد لها به: لا موظفين ولا إدارة، ولا مسؤولين ولا حكومة، إلا رجل واحد، هو الإمام المحتجب شهوراً طوالاً في بيته، فإذا سقط مسمار واحد في سيارة، فلا بد لاسترجاع مثله من أمر يصدره الإمام نفسه، وإلا ظلت السيارة معطلة.

وكان من المستحيل أن تستمر الشركة، فحزمت أمتعتها، وهربت من اليمن تطالب بالتعويض من بعيد!..

الشركة الأميركية

وخلفتها من بعدها.. شركة أميركية كبرى، معتدة بنفسها، وقوة بأسها، وضخامة رأسمالها، ولسان حالها يقول:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

ولكن الشركة الأخير زمانها، لم تستطع أن تأتي بشيء، رغم أنها صمدت أكثر من سابقتها وثبتت في وجه معارضة الأحرار لوجودها.

وخرج الإمام أحمد، وألقى على الشعب خطبة طنانة، يبشره بعهد جديد، ستصنعه هذه الشركة الأمريكية العتيدة لليمن، وراح اليمنيون يعدون أنفسهم لمناصب أغنياء الحرب، وعاد بعض المهاجرين اليمنيين مخدوعين بهذه الأكذوبة الكبرى.

وبعد عدة سنين انهار صمود هذه الشركة في وجه عوامل الموت، التي كانت تنبعث لها من البيئة السياسية اليمنية، التي يخرج منها كل شيء ميتاً، حتى ولو كان إسرافيل نافخ الصور، وباعث الموتى.

وحزمت أمتعتها كأختها الألمانية، وتنازلت عن عرش بلقيس الذي يقوم على بحيرات من الذهب الأسود.

تصريحات نعمان

في أعقاب ثورة الثلايا، راح زعيم الأحرار، الأستاذ أحمد محمد نعمان، يصرح في القاهرة للصحفيين وكان حينذاك مستشاراً سياسياً لولي العهد، بأن حكومة شعبية ستؤلف، وبأن مالية الشعب ستخرج من المخازن والكهوف، وبأن سياسة عربية تحررية حقيقية في اليمن ستبدأ.

وقد أحرج الحكّام المتوكلين بهذه التصريحات، وغضوا عليه، واضطروه للفرار، ولكن الحكّام لم يستطيعوا أن يتراجعوا بعد تصريحات نعمان لأنه كان متحدثاً رسمياً يومئذ.

غير أنهم استعانوا بمهارتهم، فاحتفظوا بأسماء الأشياء من دون مسمياتها.

فإذا بالإمام، وقد أصبح رئيساً لوزارة جديدة، اختار أعضاءها من رجال متفرقين في مناطق متباعدة يحكمونها، وظلوا في المناطق والمناصب نفسها، ولم يعقدوا اجتماعاً واحداً، ولم

يصدروا قراراً، ولقد كان بعضهم في الخارج ولا يزالون حتى الآن رغم أن وزارتهم في اليمن منذ سنوات.

نعم، إنه لم يصدر قرار واحد من هذه الوزارة التي يرأسها الإمام منذ سنوات، ولم يصدر قرار بحل هذه الوزارة، ولا بإعفاء وزرائها الذين شغلوا بمناصب جديدة.

بل لا عجب أنه لم يعد يصدر قرار بحل الوزارات التي تألفت في عهد الإمام يحيى، ولا الوزارات التي جاءت من بعده !..

ميثاق جدة

وأكبر أكذوبة يذكرها الناس هي اشتراك اليمن في ميثاق جدة، وقد كانت يوم أعلنت من أكبر الخطوات التي تحمس لها الناس لا سيما في البلاد العربية.

أما في أوساط الشعب اليمني، فقد كان الحماس مشوباً بالحذر، ولهذا اشتدت المطالبة الشعبية بتنفيذ الميثاق.

ورغم أن اليمن بعد هذا الميثاق، تعرضت للعدوان بعد العدوان من الاستعمار البريطاني فإن الحكومة اليمنية لم تحاول الاستفادة من الميثاق، في إعداد الجيش وتدريبه على مقاومة العدوان، مما دل دلالة قاطعة على أن الرجعية الحاكمة في اليمن ليست جادة، لا في إعلان التآخي والتآزر مع العرب ولا في إعلان السخط ضد العدوان الاستعماري.

السلاح الروسي

ويرافق هذه الأكذوبة في المجال العربي، أكذوبة على نطاق عالمي، وهي شراء السلاح من روسيا.

إن هذه الوثبة المتوكلية قد أثارت دهشة الناس وعجبهم فلقد دفعت حكوة اليمن مبالغ ضخمة لشراء هذا السلاح، مما لا تحتمله مالية اليمن الفقيرة.

وبينما تُعتبر هذه الخطوة جريئة إلى حد التطرف، نرى إلى جانبها دلالات قاطعة تشير إلى أن حكومة اليمن بعيدة كل البعد عن مستوى شراء السلاح من روسيا، وأن هذه الصفقة لا يُراد بها صفقة سلاح، وإنما هي صفقة دعاية لا أكثر، وإن كانت الدول عادة لا تدفع مثل هذا الثمن الضخم لمجرد الدعاية والتهويش، ولكن تحلل الرجعية الحاكمة من المسؤوليات بالمفهومات الإنسانية، يجعلها تأتي بمثل هذه التصرفات التي لا تستطيع العقول لها تفسيراً.

وإلا فليتقدم أعظم الناس عبقرية في الدفاع عن وجهة نظر المجانين، وليدافع عن الذي يشتري بالملايين سلاحاً حديثاً جداً، صعب الاستعمال حتى عند أي جيش حديث لم يُدرَّب عليه.. يشتريه ويستقدمه إلى بلاد ليس لها ميناء ولا طريق، ولا مخازن للأسلحة، ولا ورشات للصيانة، ولا خبراء ولا جيش حديث..

ومع ذلك، وبعد ذلك، ورغم كل ذلك - لا يسمح

باستدعاء الخبراء والضباط، لتدريب الجيش اليمني، أو حتى الحرس الملكي على استخدام هذا السلاح.

بل يعمد إلى هذا السلاح، فيأمر بفك أجزائه، وتوزيع كل جزء في مناطق بعيدة عن الجزء الذي يتممه، مما يجعل استعماله مستحيلاً.

******

السيادة الشعبية.. هي العلاج

لقد تبين لنا فيما سبق.. ما هي العلة الأساسية التي كانت تعرقل حياة اليمن في الماضي كله، وقد استطعنا أن نفند كل الأوهام التي علقت بأذهان الناس وصرفتهم عن إدراك تلك العلة الأساسية.. والآن نود أن نقتطف ثمار ما كتبناه وبيّناه لنخرج بالقارىء إلى نتيجة محددة واضحة؛ أننا رأينا أن مشيئة التأله على الشعب تشبثت ببقاء الشعب قطيعاً ذليلاً، شقياً جاهلاً، وكأن أهم شرط للاحتفاظ بهذا الوضع البشع .. هو أن لا تقوم للشعب حكومة تمثله، وتعبّر عن إرادته، ولا نظام يضمن له حظه الآدمي من الاستقرار والأمن.

ومن أجل هذا الهدف، أصروا على أن لا يكون للشعب دخل في اختيار حكامه ولا تغييرهم، ولا في الضرب على أيديهم، فهم حكام يستمدون حكمهم وسلطانهم وأمجادهم من السماء، وليس للشعب أن يدلي في أمر مصيرهم بكلمة ولا نصف كلمة.. ومن سوّلت نفسه شيئاً من ذلك، فإنما يسجل على نفسه الكفر أو الفسوق أو العصيان.

إن هذا الشرط الرهيب، الذي تشبثت به مشيئة التأله، كان كفيلاً في تاريخ الحكم المتوكلي، بانتزاع معظم الصفات الآدمية من شخصية الشعب اليمني.

فالفرد المتوكلي المتأله، على ما به من نقص وضعف، وشعور بالضعة والإثم - يوجد في نفسه دائماً، حاجة مُلحّة إلى أن تفصل بين آدميته وآدمية الشعب، مسافة شاسعة، كالمسافة التي تفصل بين الآلهة والعبيد.. ومن ثم وجدناهم في تاريخهم كله، يدافعون حتى الموت، عن بقاء الشعب في هذا المستوى الذي اختاروه وحددوه!..

إنه شعب يجب أن لا يشعر بأنه يملك حق السيادة، ولا حق الحكم، ولا حق التعليم، ولا حق الحرية، ولا حق السعادة، ولا حتى حق التفكير في مصير نفسه على أي نحو.

من هذه المشيئة الرهيبة الآثمة، تنبثق مأساة اليمن في تاريخها الطويل: إلغاء مشيئة الشعب، وآدمية الشعب، لتبقى وتسود مشيئة الإله المتوكلي، وآله وذريته إلى يوم الدين!..

ومن تشخيص العلة السابقة الذكر، نستطيع أن نستنبط العلاج.

يجب أن تعمل كل الجهود، كل الإرادات المخلصة الصادقة، على اقتلاع العلة من جذورها، ولن يكون ذلك، إلا بإلغاء مشيئة التأله.. تلك المشيئة المخربة المدمرة التي لا تتمتع بحق البقاء في هذا العصر.

إننا لا ندعو في هذا الكلام، إلى إلغاء وجود الحاكم المتوكلي، وإنما ندعو إلى إلغاء مشيئته المتألهة، التي تصر على استعباد الشعب وإلغاء آدميته، والكفر بحقوقه، كما ترفض أن تكون له حكومة تمثله وتعبّر عن إرادته.

والمشيئة المتوكلية المتألهة، لن تلغيها أي مشيئة في العالم، إلا مشيئة الشعب اليمني نفسه، فهو صاحب الحق وحده الذي يستطيع أن يثبت أنها مشيئة ظالمة.. باطلة.. محرّمة.. غير شرعية.

إن ظهور إرادة الشعب العربي في اليمن سوف يلغي أوتوماتيكياً إرادة الرجعية الفردية المستغلة، ويلغي شرعيتها ووجودها، ويجعلها إثماً وعاراً ولصوصية.

ولن تظهر مشيئة الشعب ظهوراً شرعياً، يعيد إلى الشعب كافة حقوقه، ويحقق له كافة أهدافه، إلا إذا كانت للشعب حكومة منبعثة من ضميره، ومن كيانه.. حكومة حديثة منظمة، تستطيع أن تستوعب مفاهيم الحياة الحديثة، وتنفذ مطالب الشعب العربي في التحرر والوحدة والتقدم.

إذن، فالعلاج هو سيادة إرادة الشعب، ومظهرها الفعلي الشرعي، هو قيام حكومة تمثل الشعب وتعبّر عن إرادته في الحياة.

ظروف الشعب.. تحدد طريق النضال

ولكن كيف تسود إرادة الشعب ؟..

هل بالضراعة والاستجداء؟.. هل بالثورة والعنف، والإطاحة بالعهد الراهن من أساسه؟؟

إن الضراعة والإستجداء، لا يأتيان بشيء من الحقوق، ولم يأتيا بشيء منها قط، والحق كما علمنا.. يؤخذ ولا يُعطى..

وأما أخذ الحق عن طريق الثورة، فإن هذا حل لا يحتمل البحث، ولا شأن لنا به.. والثورات عادة لا تنتظر الفتوى، وإنما تنفجر انفجاراً.

ونحن لا نستطيع أن نتحدث بصراحة، وبملء أفواهنا، إلا عن توجيه إرادة الشعب توجيهاً شرعياً.

إن كل شعب في العالم، له حق في الكلام، وفي التعبير، وفي المطالبات الجماعية بحقوقه.. ونحن لا نرى شعباً في الدنيا محروماً من الحقوق البديهية في الحياة.. كالشعب اليمني، ولا يستطيع أحد في العالم أن يستنكر أو يلوم هذا الشعب، إذا هو تجمع وتضامن واتحدت كلمة أبنائه من كافة الطبقات والمناطق والقبائل، على مطالبة المسؤولين علناً، بالحق الأساسي للشعب، وهو أن تكون له حكومة تنبثق عنه وتعبّر عن مشيئته، ولا تفرض عليه فرضاً، لتحاربه، وتقاوم إرادته في الحياة.

إن التجمع حول هذا الهدف الشريف النبيل من شأنه أن يكون حلاً سلمياً لمشكلة اليمن، ومن شأنه بالتالي أن يكون الوسيلة الحاسمة، لتحقيق الأهداف العربية المتحررة، ويجعلها واقعاً ثابتاً، لا مجرد تصريحات في الهواء، أو توقيعات على الورق.

إننا في توجيهنا لإرادة الشعب العربي في اليمن، ندرك جيداً أن هذا الشعب وحده هو الذي يستطيع أن ينفذ إرادته، وهو نفسه الذي يملك الإرادة الشرعية المعترف بها دولياً.

ونحن لهذا السبب، لا نطلب عوناً من الأقطار العربية الأخرى، تساعد الشعب على إظهار مشيئته، لا نطمع من العروبة أن تقدم لشعبنا هذا العون.

ولو طمعنا في هذا العون، لما كان ينبغي لنا أن نطلبه، لأنه يثير مشاكل دولية، وقد يعرّض سلامة اليمن واستقلالها للخطر، وقد يجر على العروبة محناً جديدة، لا نريد اليمن أن تكون سبباً فيها.

ولا بد لنا أن نتعرض لرأيين خاطئين:

الرأي القائل بضرورة تدخل الجمهورية العربية المتحدة لصالح الشعب اليمني، والرأي القائل بضرورة تدخلها لحماية العرش التوكلي..

وأصحاب الرأي الأول، هم الأغلبية الساحقة من جماهير الشعب في اليمن، يؤيدهم الكثير من المفكرين المتحمسين في البلاد العربية.

أما أصحاب الرأي الثاني، فهم أقطاب العرش في اليمن.

وقد كنا نحن.. في تاريخنا الماضي كله، من أصحاب الرأي الأول، يوم كانت حركة الوحدة العربية، ينظر بعضها إلى بعض، كما ينظر إلى أية دولة أجنبية أخرى، وكان أحرار اليمن يفزعون دائماً إلى العرب، في كل مشاكلهم الداخلية، ولم تستطع أشد الصدمات وأقساها أن تحملهم على اليأس، أو على تغيير هذا الرأي.

ولا زلنا الآن نود ونتمنى لو يستطيع العرب الأحرار، أن يقوموا بأي عمل إيجابي، من أجل إنقاذ الشعب العربي في اليمن.

غير أن هذه الأمنية أصبحت بعيدة المنال، بعد التطورات العديدة الخطيرة، التي مرّت بالأمة العربية، خلال الفترة الأخيرة.

ومن ثم أصبح واضحاً، إنه لم تبقَ وسيلة لتحرير اليمن من الأوضاع الفاسدة إلا النضال الشعبي المحلي، يقوم به اليمنيون أنفسهم في الخارج والداخل.. ولا يجمل باليمنيين أن يضيفوا إلى كاهل العروبة المتحررة مزيداً من المتاعب، كما لا يجمل بهم أن ينكصوا عن احتمال تبعات الكفاح وتضحياته، ثم يطلبوا من سواهم أن يتحملوا هذه التبعات والتضحيات.

هذا هو الرد على المطالبين بالتدخل في صالح الشعب.

وأما أصحاب الرأي الثاني.. وهم الحكّام الذين يطمعون في أن تصبح الجمهورية العربية المتحدة، أداة لتدعيم أوضاعهم الفاسدة الظالمة ضد الشعب، فيكفي في الرد عليهم، أن نحيلهم إلى أصول سياستهم في النفور من التدخل العربي في شؤون اليمن الداخلية، وإلى ما أعلنوه عند إبرام الاتحاد مع الجمهورية، بأن هذا الاتحاد لا يخول لأي الدولتين، أن تتدخل في أمر الأوضاع الداخلية للدولة الأخرى.

ومن الواضح أن مبدأ عدم التدخل، إذا كان يعني أن لا تتدخل الجمهورية العربية في صالح الشعب ضد الحكّام، فهو يعني كذلك، أن لا تتدخل في صالح الحكّام ضد الشعب.

ولو أنْ حكّامنا قبلوا مبدأ التدخل العربي، لتدخل العرب الأحرار في صالح الشعب وفي صالح الحكّام معاً.

غير أن حكّامنا، ما داموا لم يقبلوا هذا المبدأ، فلا سبيل لهم، إلى أن يطالبوا العرب، بأي لون من ألوان التأييد والتدعيم لسلطانهم الداخلي على الشعب، ولا سبيل لهم إلى أن يستعينوا بأي دولة عربية، على خلق مزيد من القيود على حرية المناضلين الأحرار.

وفي الوقت نفسه، لا يبقى للشعب من سبيل إلى مطالبة العرب بنجدته وإنقاذه، بل عليه أن يحل مشاكله، معتمداً على نفسه.

لقد كان من صالح الشعب في الماضي، ومن ضروراته الملحة، أن يتدخل العرب بينه وبين حكومته، ليكفوا عنه يدها الباطنة، يوم كان الشعب اليمني أضعف من حكومته.

أما اليوم من مصلحة الشعب أن يتركه العالم كله، يحل مشكلته مع حكومته بوسائله الخاصة، بعد أن أصبح أقوى من حكومته.

وقد قدمت حكومة اليمن إلى شعبها خدمة كبرى، من حيث لا تشعر، حين رفضت أن يتدخل أحد في الشؤون اليمنية الداخلية.. إذ لو تدخل العرب في شؤون اليمن المحلية، لقدموا المقترحات للحلول الوسط بين الحكومة وبين الشعب ولربما كان في ذلك ضمانة لجذور الأوضاع الراهنة، وحصانة للحكام مقدسة، لا ترتضي وطنية المناضلين بعد ذلك أن يمسّوها.

مسؤولية المفكرين العرب

وبناء على ذلك كله.. وإذا كنا نطالب الشعب اليمني أن يتحمل العبء كله عبء استرداد حقوقه الآدمية، ويعفي البلاد العربية من مهمة العون والمساعدة لهذا الشعب، تقديراً للظروف الدولية والعربية، والتزاماً للحدود التي وقف عندها حكامنا في تعاونهم مع العرب.. فإننا في الوقت نفسه - ولنا ألف حق وحق - نطالب الأمة العربية، ورواد حركتها الأحرار، وصحافتها وإذاعتها، وهيئاتها وجماهيرها، وكتابها وشعرائها، ومصوّريها

ومذيعيها ومثقفيها أن لا يكونوا عوناً للرجعية الحاكمة في اليمن ضد الشعب، بأي أسلوب من أساليب العون المادي أو المعنوي، فإن الشعب العربي في اليمن، سيجد نفسه محرجاً مقهوراً مخذولاً، معرضاً للهزيمة في نضاله، إذا ما رأى القومية العربية، وقد وقفت إلى جانب الحكّام اليمنيين الرجعيين!..

إن استقبالاً شعبياً حافلاً، تقوم به الجماهير، لاستقبال صنم من أصنام الرجعية اليمنية، يسجل في الإذاعات وينشر في الصحف.. إنما يُعتبر في نظر الشعب اليمني ضرباً من ضروب الإرهاب له، ومؤازرة لجلاديه الظالمين، كما يُعتبر في الوقت نفسه مقاومة قاصمة، لحركة التحرر والوحدة والتقدم التي تجيش بها إمكانيات الشعب المناضل، في ربوع اليمن.

إننا نحن الذين نعيش في خضم النضال العربي العام، ندرك ونقدس الدوافع القومية التي تحمل جماهير العرب على الهتاف والتصفيق للمواقف المسرحية التي تلوح فيها وجوه الرجعية اليمنية الحاكمة، مقنّعة مزوّرة بالأصباغ والمساحيق.. فلسنا بغاضبين على جماهيرنا العربية، ولسنا بناقمين، ولكن الشعب العربي في اليمن، لا ينظر إلى الموقف نظرتنا، ولا يتسامح تسامحنا، لأنه لا يعيش المعركة العربية، كما نعيشها نحن في حفنة قليلة من المفكرين الأحرار.

ولذلك كان لزاماً علينا، أن نكون رواداً صرحاء أمناء، بين الشعب العربي في اليمن، والشعب العربي في الأقطار الأخرى.

إننا نود أن ننبّه العرب إلى أن في اليمن شعباً عربياً، يعيش في معركة منذ ربع قرن في سبيل الخلاص من أوضاع داخلية بالغة السوء، وهو يضحي ويبذل الفداء، ويقدم أبناءه الأحرار للقيود والأغلال والمذابح، ويقاسي إرهاباً متوكلياً رهيباً، وأحزاناً مريرة يعجز عن فهم كنهها العقل العربي الحديث.

وهذه المعركة اليمنية، تختلف في ملابساتها وفلسفتها عن طبيعة النضال العربي العام، ولكنها لا تختلف بأهدافهاعن أهداف هذا النضال العربي، تلك الأهداف التي تتبلور في الوحدة والتحرر والتقدم.

وخطورة الموقف هنا، أن رجال الفكر في بلاد العرب، لا يتعمقون في تفهم طبيعة النضال اليمني، وإنما يرتجلون أحكامهم ارتجالاً سطحياً، ويبالغون في تعميم مفهوماتهم النضالية الإقليمية، ويجعلون منها المقياس الوحيد، الذي توزن به كل قضايا العرب في سائر الأقاليم، مهما اختلفت ظروفها وملابساتها.. وهذا الخطأ نفسه، كانت قد وقعت فيه بعض الأمم الكبرى في أوروبا وأمريكا، فأدى إلى أن تتجزأ الأمة الواحدة إلى عدة أمم صغيرة، لأن بعض الأقاليم كان يعجز عن فهم المشاكل المحلية في الأقاليم الأخرى.

ونحن العرب علينا أن نستفيد من العبر التاريخية، وأن نحذر من الوقوع في تكرير أخطاء التاريخ، حتى لا تتكرر النتائج، لا سيما وأن الاستعمار بالمرصاد، يتربّص بنا العثرات، ليستفيد منها في تعزيز الميول الانفصالية، في بعض أجزاء الوطن العربي.

ونحن نعرف أنها لمهمة عسيرة على قادة التحرر العربي.. أن يوفقوا بين واجب العطف على قضايا الشعوب العربية، في المستوى الإقليمي الخاص، وبين واجب التصافي والتعاون مع حكام هذه الأقاليم العربية في المستوى القومي العام لمواجهة المشاكل القومية المشتركة صفاً واحداً أمام العالم.

وأن النجاح في حفظ التوازن بين هذين الواجبين يقتضي قدراً كبيراً من الدقة والكفاءة والحكمة.. ولم يجد تاريخ العرب الحديث، قائداً نجح إلى حد كبير في أداء هذه المهمة العسيرة الفادحة، كالرئيس جمال عبد الناصر.

لقد كنا في الماضي، نرى أن الحكام في البلاد العربية، لا يعرفون إلا الحكّام ولا يفكرون إلا في رضى الحكومات، فإذا عملوا شيئاً من أجل الوحدة والتحرر.. كان عملهم في المستوى الحكومي.

وقد كانت النتيجة دائماً الفشل، لأنه كان في الحكّام مَنْ يتمسكون بأوضاع التجزئة، ويصبغون عليها صبغة القداسة، حفاظاً على كراسيهم ومناصبهم.

وكان في الحكّام أيضاً مَن ارتبطوا بالاستعمار، فجعلوا من أنفسهم طابوراً خامساً في الجامعة العربية، ضد التحرر من الاستعمار..

وكان في الحكّام كذلك رجعيون وإقطاعيون، فنصبوا أنفسهم حرباً على كل حركات التحرر والتطور، بل أرادوا أن يجعلوا من الجامعة العربية معقلاً لحماية أوضاع السوء في جميع بلاد العرب.

وسر العبقرية في جمال عبد الناصر، أنه استطاع أن يكون شيئاً آخر، يختلف عن طراز جميع الحكام العرب، فجمع بين مداراة الحكام العرب، والتلطف إليهم، والمبالغة في البر بهم، مع مصارحتهم ومراجعتهم ومواجهتهم بالمشاكل القومية.. وبين استرضاء الشعوب العربية، وكسب ثقتها ومحبتها وتأييدها، حتى أصبحت أغلبيتها الساحقة جنوداً مجندة، تدين بالولاء لمبادىء الثورة العربية الكبرى التي يقودها هذا العملاق العربي الجبّار.

قد يقول القائل: إن قيادة الثورة العربية التحررية، اصطدمت ببعض حكام العرب، واشتبكت معهم في معارك عديدة، ولكننا عند تحليل أسباب هذه المعارك نجدها آتية مفروضة من حكومات العملاء التي كانت تفتعل الخلافات افتعالاً مفضوحاً، لتفل من جبهة النضال العربي التحرري وتنال من سمعة قيادته، وكانت تفعل ذلك، إما خدمة للاستعمار أو محافظة على كيانات التجزئة والرجعية والإقطاع، أو للغرضين معاً.

ومن جهة أخرى، فقد كان هذا الاصطدام يتعلق بشؤون النضال القومي العام، لا بالشؤون الداخلية الخاصة، ولكن القائد المحنك، الذي استطاع أن يتوازن ويقف على الخط الضيق الدقيق،

الفاصل بين الحكام والشعوب، لا بد أن يظل هدفاً للضغط المستمر من الحكام والشعوب جميعاً: فالحكام يبتغون منه مزيداً من المداراة، ومزيداً من العطف والتدليل، ويتحايلون عليه، ليكسبوا في ظله حصانة ضد ثورات الشعوب، بينما الشعوب تتجه إليه بكل مطامحها الثورية، التي لا تعترف بحدود ولا قيود، ولا تبالي بعواقب ولا نتائج، ولا تقتنع منه إلا أن يصفي مشاكل الوطن العربي كله بضربة واحدة.

والشعب العربي في اليمن كسائر الشعوب العربية، وقد يكون أشدها جميعاً، لهفة وتطلعاً إلى نجدة العصا السحرية، التي يحملها قائد العروبة المتحررة.. عبد الناصر.

ونحن كبقية أفراد الشعب اليمني، نحمل الهم نفسه، واللهفة نفسها، والعاطفة نفسها، ولكنا نعيش المعركة العربية، في مستواها القومي بين أحرار العرب فلذلك نستطيع أن نفهم دقة الموقف ومصاعبه وحرجه، ونضطلع بتوجيه النزعة التحررية في اليمن، توجيهاً صحيحاً، على ضوء ما نعرفه وندركه، فنطالب الشعب في اليمن، أن يعتمد على نضاله الداخلي وعلى جماهيره وإمكانياته التحررية، وقوته الذاتية التي هي كفيلة لو انطلقت - أن تحقق له كل ما يريد.

ومن جهة أخرى، لا بد أن نحمي حركة اليمن التحررية، فنضطلع بتوجيه الرأي العربي العام توجيهاً صحيحاً، ونحاول أن نجعله ينسجم مع روح الحركة الشعبية في اليمن، فلا يقاومها، ولا يقف إلى جانب أعدائها.

وإذا كنا نحن نفهم دقة موقف الرئيس جمال عبد الناصر، ولا نحرج حكومة الجمهورية العربية بمزيد من المصاعب، فإننا نكرر ونضع المسؤولية كاملة في المجال العربي، على قادة الفكر، وروّاد الحركات العربية وهيئاتها وصحافتها ومؤسساتها وعلى المؤلفين والمذيعين، والشعراء والكتّاب، والأدباء وقادة الجماهير.. نضع المسؤولية على هؤلاء جميعاً، كي يقفوا إلى جانب الشعب العربي في اليمن، ولا نعذر أحداً منهم، إذا ساهم في تدعيم الأوضاع اليمنية البشعة، ولو بكلمة أو ابتسامة.

إن الشعب العربي في اليمن يكافح ويستميت، ليتخلص من الأغلال والأهوال التي شلّت حياته، وشوّهت آدميته ومسخت عروبته، وهو يكدح في الصراع معها، ليتحرر منها، ويهب مسرعاً من أجل اللحاق بموكب النضال العربي الزاحف إلى أهدافه التحررية المقدسة.

ولسوف تعتبر نكبة عربية قاسية، لو رأينا أجهزة النضال العربي.. وهي تعزز الأغلال، التي يعيش فيها شعب اليمن بعيداً معزولاً عن العروبة.. وتقف إلى جانب الجلاد، وتمده بمزيد من طاقات البطش والتنكيل، ثم تضع على رأسه أكاليل الغار كلما شنق شهيداً، أو فتح قبراً أو صنع قيداً.

ومن قعدت به ظروفه عن الوقوف إلى جانب الشعب العربي في اليمن، فلا أقل من أن يصمت، ويتجنب الإضرار بقضية هذا الشعب، وهذا أضعف الإيمان.

تخذتكم درعاً حصيناً لتدفعوا   سهام العدى عني فكنتم نصالها
وكنت أرجي منكم خير ناصر   على حين خذلان اليمين شمالها
إذا أنتمُ لم تحفظوا لمودتي   ذماماً، فكونوا لا عليها ولا لها
قفوا وقفة المعذور عني بمعزل وخلوا نبالي للعدى ونبالها

إن الشعب العربي في اليمن عاش نصف قرن مجفواً من إخوانه العرب، ومهملاً ومنسياً، ولا يكاد العرب يذكرون هذا الشعب، أو يعترفون بوجوده القومي، إلا عندما تلوح لهم إشارة من جلاديه، أو حينما يتكرم الجلاد ويتعطف ويتلطف بابتسامة أو بتحية إلى الأمة العربية، أو عندما يظهر في فصل من فصول مسرحياته، ويخلع على نفسه أثواب البطولة المزوّرة، فعندئذ تتحرك أجهزة الدعاية العربية وتنطق الاسم المهمل الضائع (اليمن).

عندما تأسست الجامعة العربية، هبّ الشعب في اليمن يطالب بالانضمام إليها وأجبر حكّامه على ذلك، ثم ذهب الأحرار اليمنيون ينادون العرب، ويستحثونهم نجدة الشعب ويطالبون بتنفيذ ميثاق الجامعة العربية، وينذرونهم بأخطار الثورة في اليمن.. وقد كان ملوك العرب يومئذ، يصمّون آذانهم عن سماع صوت الشعب، بل وكان منهم مَن يقدم مذكرات الأحرار إلى حكام اليمن، ويشجع هؤلاء الحكام على التمسك بموقفهم الصلب، ضد مطالب الشعب، كما يطلب منهم مزيداً من التنكيل

بالأحرار، وكان الرأي العام العربي يلتزم الصمت المطبق عن هذه القضية، ولا يعيرها اهتماماً، ولا يعرف لها معنى.

فلما قامت الثورة اليمنية الدستورية، تحرك الملك عبدالله بن الحسين وتحرك وراءه كل الملوك، وتحركت أجهزة الدعاية التي يسيطرون عليها، وراحوا يصيحون بالويل والثبور وعظائم الأمور ضد الثورة والثوار، واستطاعوا أن يهزموا أول حركة شعبية عربية، ضد الملكية في بلاد العرب وأن يذبحوا أبطالها كما تُذبح النعاج، فخسرت اليمن بهذه النكبة زهرة رجالها وأبطالها الذين أنجبتهم في نصف قرن وكان حال العرب مع الشعب اليمني، كحال الدنيا مع المتنبي القائل:

أظمتني الدنيا فلما جئتها ... مستسقياً مطرت عليّ مصائبا

لقد اتصلنا بكثير من أحرار العرب ومفكريهم، وشرحنا لهم قضية الشعب ولا نكاد نرى أحداً منهم إلا حائراً لا يدري ماذا يصنع إزاء هذه القضية، ونحن نعرف علة هذه الحيرة إنها ليست حيرة، ولكنها ضعف في الاهتمام، ونحن نعرف علة هذا الضعف... إن الجيل العربي كله، لم يهيأ في ثقافته ولا في تربيته لفهم قضية اليمن على حقيقتها، لأنها قضية شاذة غريبة على وعي هذا الجيل، وعلى ثقافته.

ولكن هذا كله ليس عذراً كافياً، حتى يسقط عن العرب مسؤوليتهم القومية عن مصير اليمن.. أن أفراداً قلائل من علماء أوروبا وسيّاحها.. استطاعوا قبل عشرات السنين وقبل أن توجد

المواصلات الحديثة.. إن يقتحموا أسوار اليمن المنيعة، وأن يحطموا الحواجز الدينية والجنسية والجغرافية والسياسية واللغوية، وأن يتغلغلوا إلى أبعد المجاهل اليمنية، وأشدها إغراقاً في العصبية والتوحش، وأن يتمكنوا بعد ذلك كله من استنطاق الأحجار والآثار والمقابر والمعابد المطمورة تحت أكوام هائلة من رمال القرون، حتى نجحوا نجاحهم الإنساني الجبار، فاكتشفوا أصول الشعب اليمني.. ثم نشروا هذا التاريخ، وتحدثوا عن هذا الشعب، وملأوا مكاتب الدنيا بالمؤلفات عنه.

وقد غامر هؤلاء العلماء بأنفسهم، وخاطروا بحياتهم، وعاشوا مع البدو المتعصبين بأسماء وأزياء مستعارة، ومرغوا وجوههم في تراب الأكواخ، وأدموا أرجلهم وهم يتسلقون الجبال، ويسيرون على الأشواك، أفبعد هذا الجهد الإنساني الجبار الذي اضطلع به من أجل اليمن، أو من أجل التاريخ.. أولئك الأبطال الغرباء عن العروبة، يمكن أن يُقال: إن رجال الفكر ورواد الحركة العربية معذورون عندما يجهلون الشعب العربي في اليمن، ويقفون من قضيته موقفاً سلبياً، ويتقاعسون عن السفر إليه، بل وعن التحدث عنه، ويتعللون في ذلك بمختلف التعلات الواهية؟..

إننا – كما قدمنا – نقدر المصاعب التي تواجه القيادة العربية الرسمية ونعرف الأضرار البالغة، التي قد تصيب نضالنا القومي من جراء أي تدخل رسمي، فلسنا نواجه بهذا الكلام قادتنا

الرسميين، فهم مسؤولون عن النضال في المستوى القومي العام، لا عن النضال في المستوى المحلي.

وإنما نوجه هذا الكلام العاتب إلى مَن وراء القيادات الرسمية من رواد الحركة العربية العاملين فيها. . .

وكيف قاوموا الاستعمار ؟

ويقول البعض من المتحمسين العقائديين: إن حكام اليمن يتعرضون لعدوان الاستعمار. ونحن نقول: إن هذا الكلام يدل على أن الوعي العربي، لا يزال في فقر شديد إلى النضج والاكتمال والاستفادة من التجارب العربية والإنسانية، ألم يستطع هؤلاء بعد أن يعرفوا أن أوليات العقيدة التحررية النضالية، أن الرجعية والاستعمار صنوان لا يفترقان.

إن الشعب العربي في اليمن، رغم أنه يدفع التضحيات والفداء من دماء بنيه الأبطال في الجنوب والشمال، إلا أنه يعرف أن الصراع بين الرجعية اليمنية الحاكمة وبين الاستعمار صراع مزيّف مفتعل.

إن الاستعمار والرجعية اليمنية يشعران معاً بضرورة بقاء العهد الراهن في اليمن، وكما أن الرجعية تجد أن أقصر طريق لحماية نفسها، هي أن تشتبك مع الإنجليز في معركة مزورة فكذلك الإنجليز وجدوا أن أفضل طريق لحماية العهد الرجعي في اليمن، هي الاشتباك مع هذا العهد في المعركة المزورة.

إن هذا المقدار الزائف من القلق يشبه الميكروب المستضعف الذي يقذفه التلقيح والتطعيم إلى داخل الجسم، حينما يخشى عليه المرض ليمنح الجسم مزيداً من المناعة.

على أن العدوان نفسه، لا تتم دلالته، ولا تنكشف حقيقته، إلا إذا عرفنا رد الفعل اليمني الرسمي ضد هذا العدوان. . فماذا فعل الحكام اليمنيون إزاء هذا العدوان ؟.

١- رفضوا أن يدربوا أي مناضل يمني على الدفاع والمقاومة، ومنعوا البعثة العربية العسكرية من أن تقوم بأي تدريب على أي سلاح قديم أو حديث بشكل إيجابي صحيح.

٢- أعلنوا الصراع مع الإنجليز، واستثاروا قبائل جنوب اليمن المناضلة، وأغدقوا عليها الوعود السخية، وقالوا: إنهم سيعززون كفاحها بالعون المحلي، فلما نشب الصراع بينها وبين الاستعمار، تركوها وشأنها تكابد العدوان مجردة من أي عون، ومن أي تسليح أو تدريب، مما يهدد بانتكاس حركة النضال هنالك، ويخدم الاستعمار أعظم خدمة.

٣- طالب الشعب بفتح ميادين التدريب، أو باستدعاء جيش عربي لحماية المنطقة المستقلة، كما فعلت سوريا قبل الوحدة، أو على الأقل بتسليح القبائل المناضلة لتستطيع أن تدافع عن نفسها، ولكن الحكام رفضوا جميع هذه المطالب.

٤- اتخذوا من قنابل الإنجليز ورصاصهم أداة للتنكيل بالعناصر الحرة في الجيش اليمني، فإذا ارتابوا في ولاء مجموعة من الجيش أرسلوها إلى مناطق العدوان لتحصدها القنابل، وهي مجردة من وسائل الدفاع.

٥- أهملوا أحرار اليمن المحتلة، وعاملوهم معاملة جعلتهم بعد أن لجأوا من الإنجليز إلى اليمن المستقلة - عادوا فلجأوا من اليمن إلى الإنجليز، ومن هؤلاء الجيش العربي في لحج، فقد هرب بكامل أسلحته ومعداته إلى اليمن، ثم أخذ ينجو بنفسه إلى لحج.

٦- اشتروا من الدول الشرقية أسلحة حديثة بالملايين في صفقات لا تطيقها ميزانية اليمن، ووصلت هذه الأسلحة أثناء العدوان على اليمن، فلم يسلحوا يمنياً واحداً، بهذه الأسلحة، ثم ركموا هذه الأسلحة في المخازن والكهوف، بعد أن فككوا أجزاءها، وشتتوا هذه الأجزاء في مناطق متباعدة، حتى تستحيل الاستفادة من هذا السلاح.

٧- استدعوا السلطان علي عبدالكريم إلى اليمن، ووضعوه على الرف عشرين يوماً، ثم جلسوا معه ساعة من نهار ولم يدخلوا معه في أي بحث عن خطة للنضال، أو عن مستقبل اليمن المحتلة.

وبعد هذا كله.. أَفَيجوز لروّاد الحركة العربية وشباب العرب الأحرار.. أن يجعلوا من العدوان على اليمن مبرراً لحماية الأوضاع الرجعية في هذه البلاد التعسة؟..

أليس هذا الجيل العربي، هو الجيل الذي عاش معركة فلسطين المزورة، التي اصطنعها الاستعمار وعملاؤه لإضاعة فلسطين؟..

هل تحتاج قضية الأسلحة الفاسدة إلى مَن يذكّر الناس بها، حتى يدركوا أن في دنيا العرب معارك فاسدة، وأسلحة فاسدة، وحكماً رجعياً أسوأ من حكم فاروق آلاف المرات؟..

ألا يذكر الجيل العربي الحديث: أن الثورة العربية الكبرى في ٢٣ يوليو، إنما كانت قبل كل شيء.. ثورة على المعارك المسرحية، التي كان يشتبك بها عهد فاروق مع اليهود والإنجليز؟..

ألا أشد ما ننسى نحن العرب!!

وماذا نفذوا من الاتحاد؟

قد يقول البعض: إن هذا الاتحاد الذي تقدمت به حكومة اليمن، وسارعت إليه، أليست له دلالته على نزعة قومية عند الحكام في اليمن؟

ونحن نقول:

- إن حكامنا في اليمن أسرعوا إلى الاتحاد الذي يستحيل تنفيذه ليقطعوا الطريق على قيام اتحاد صحيح، أو وحدة قد يفرض الشعب أياً منهما على حكام اليمن فرضاً.

ثم.. ما هو هذا الاتحاد الذي أراده حكام اليمن؟

* مرتبات ضخمة يتقاضاها رجال الدولة المتوكلية على حساب الجمهورية العربية.

* تجميد لحركة الشعب في الداخل، وتعطيل للنضال الصادق في سبيل الوحدة والتحرر والتقدم.

* مزيد من العزلة عن العرب في ظل الاتحاد.

فبعد أن كان بعض الصحافيين العرب، يستطيع أن يزور اليمن ويبقى فيها أياماً، أصبح بعد الاتحاد أمراً عسيراً، لأن حكومة اليمن لا تريد أن تعترف بالمبدأ الذي وقّعت عليه في ميثاق الدول العربية المتحدة، والذي يقضي بإلغاء التأشيرة وجوازات السفر بين اليمن والجمهورية العربية فأصبحت لذلك حساسة ضد أي قادم عربي من الجمهورية، وقد طردت بعض الصحافيين العرب بأسلوب مثير.

وبعد، فإن الاتحاد لم يُنَفَّذ منه حرف واحد حتى الآن، اللهم إلا مرتبات الوزراء اليمنيين، وإلغاء تبادل التمثيل السياسي بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة.

وقد صرخنا ملء هذا الكتاب... أن الشعب العربي في اليمن لا يقبل الاتحاد ناقصاً مبتوراً، رغم أن الشعب يعلم علم اليقين، أن الاتحاد لن ينفذه حكام اليمن ولن يطبّقوه، ولن يستطيعوه لاستحالة قيام التنفيذ بدون أداة للتنفيذ.

وقد آن للشعب أن يبدي رأيه بصراحة، وهو أنه منذ الآن لا يمكن أن يرضى بأنصاف الحلول، فلا سياسة خارجية أو عربية تحررية، مع سياسة داخلية رجعية ولا اقتصادية بدون تعليم، ولا نهضة بدون حكومة حديثة، ولا اتحاد بين حكومة وبين لا حكومة.

إن النضال العربي في المستوى القومي يخضع لاعتبارات ومصالح عليا لا نهاية لها، وليس من صالح القومية العربية أن تتجمد في النطاق المحلي حركات التطور والتحرر في الأقاليم العربية المتأخرة، انتظاراً لنهاية المعارك العربية في مستواها القومي، لأنها معارك لن تنتهي. بل وإن من صالح هذه المعارك أن تسير حركات التطور الداخلي في الأقاليم المتأخرة سيرها الطبيعي، من دون أن تتجمد أو تتعطل في فترة النضال القومي العام، لا سيما وأن حركة الأحرار اليمنيين، ليست من الحركات الاعتباطية، التي تكافح من أجل مطالب خيالية أو ثانوية، يمكن إرجاؤها إلى حين.

بل هي تكافح من أجل المحافظة على أدنى حق من حقوق الحياة، بل من أجل الحياة نفسها.. فإن الشعب العربي هناك معرَّض للتمزق أو الاستعمار أو الانقراض، إذا لم ينجح في تغيير أوضاعه السياسية.

قبل الختام

هذه رسالة نابضة بالحياة منتزعة من واقع الشعب، بعث بها إلينا أبو الأحرار اليمنيين من مدينة وادي مدني بالسودان، الشيخ يحيى حسين الشرفي، وقد رأينا أن نثبتها هنا، لِما تحمله من أفكار تحررية ومعرفة بواقع الشعب العربي في اليمن، والسياسة التي يتمسح بها الحكام المتوكليون فيها وبما فيها من تركيز لمطالبنا الوطنية التي تُعتبر ختاماً طبيعياً لكتابنا هذا.

يقول الزعيم الكبير الشيخ يحيى حسين الشرفي:

نظراً لِما هو جارٍ الآن من شبه تحوّل في سياسة الحكام في اليمن، وتظاهرهم بالإصلاح، وما يزعمونه من التحرر من الرجعية إلى حد التطرف، والغيرة على مصالح العرب، وما يقومون به من الدعاية للسلام.. فإن هذا كله ليس إلا مجرد اتجاه اصطناعي، للتظاهر بالسفينة التائهة في خضم الطوفان، والتي يريدون تحويل سيرها بالنفخ بأفواههم صوب الشمال وصوب الجنوب، وفي اتجاه الشرق والغرب. إذ ليس هناك ربابنة يجيدون الملاحة، ليصلوا بهذه السفينة التائهة إلى بر الأمان، بل ليس فيهم مَن يجيد حتى السباحة.

لقد جعلتني مناقضات السياسة اليمنية أبكي ساعة حتى ينفطر قلبي من البكاء أو يكاد، وتارة أضحك حتى أكاد أشك في

نفسي خوفاً من أن أكون قد أُصبت بالجنون.. وأنتم - عفا الله عنكم - إلى متى تظلون تترقبون هذا العبث، وتشاهدون هذه المتناقضات؟ فالسكوت قد يكون رضى بالأمر الواقع، إذا اكتفيتم بالشعارات، وبأن لدينا ممثلين للاتحاد العربي في القاهرة، بينما الشعب وحياته ومصالحه تُداس وتُمتهن.

لا. ليس لنا مجال للسكوت، فهذه فرصة نادرة وفخ مفتوح للقبض على المتلاعبين بالقيم، والعابثين بمقدرات شعب اليمن.. في إمكانكم - ولكم مكانتكم في المجتمع العربي، ومعروفون معرفة تامة بسياستكم النبيلة - الخروج عن هذا الصمت، لأن الصمت يُعتبر منكم في هذا الظرف.. إما يأساً، وإما أن يكون صبراً يفوق صبر أيوب.

ونحن إذا انتظرنا أن يكون لليمن تقدم، وأن يكون في اليمن إصلاح، على هذا الوضع، وعلى هذه الطريقة.. فكأننا نريد أن نسير سير السلحفاة، ونوهم أنفسنا بأننا سوف نسبق عابرات القارات، وأقمار الفضاء. إننا نوهم أنفسنا فقط!..

على أنه يجب علينا إذا منحنا الله صبر أيوب - أن يمنحنا عمر نوح، حتى نلتقي فيما بعد مع إنسان القرن الأربعين.. فلقد فاتنا ركب القرن العشرين، وسيفوتنا ركب القرن الثلاثين، وما علينا إلا أن نصبر ونسكت، وننتظر ونترقب ونحلم!..

وهذا لا يكفي، وليس عملياً لأنه لا يخدم القضية، ولا يثير في النفوس الأمل البنّاء المنطلق.. لذلك، أقدم لكم هذه النقاط،

راجياً دراستها والعمل بها، أو تعديلها حسب ما تقتضيه المصلحة الوطنية، للخروج من جو الصمت الذي عشعش على دنيا القضية الوطنية لليمن:

١- **تقديم بيان واضح مستفيض عن الوضع في اليمن، ونظام الحكم، واستحالة إمكان الشعب أن يقوم بالتزاماته القومية التحررية، ما لم يكن له مجلس استشاري مُنتخب، وبشرط أن يشارك أبناء الجنوب اليمني المحتل في الانتخاب والترشيح، وحتى يمكن بواسطة هذا المجلس تشكيل حكومة لها كيانها، لتحمي حقوق الشعب من العبث، وترعى مصالحه من الضياع، وتوفي التزاماته القومية نحو القومية العربية، ومجلس الاتحاد العربي.**

٢- **تنحية السيوف والأفراد عن الحكم والسياسة لأن حكم نصف قرن من الزمان، كان دليلاً قاطعاً على عدم صلاحيتهم، وعدم حرصهم على مصالح ومقدرات الشعب.**

٣- **العفو العام عن جميع المعتقلين السياسيين، والاعتراف بحق جميع اليمنيين في وطنهم.**

٤- **إفساح المجال لجميع اليمنيين المشردين، وإعطائهم الضمان الكافي في العودة إلى أرضهم، وبناء كيانها الاقتصادي.**

٥- **توزيع هذا البيان على نطاق واسع، وإرساله إلى الأمين العام للجامعة العربية، وإلى جميع أعضاء وفود الدول في الجامعة، وسفراء البلاد العربية، ورؤساء جمهورياتها، وإذا أمكن فمن الخير إرساله إلى الدول التي لها صداقة مع حكام اليمن.**

إن هذه المطالب التي تضمنتها هذه النقاط معتدلة وعادلة، وقد تجد كل عطف من جميع الأحرار العرب، ولسوف يكون فيها أحد أمرين:

إما إحراج للعابثين، أو توجيه لهم، إذا هم قد أصبحوا ملائكة، وصار لديهم حسن نية، وعزم على تقدم البلاد.

أما المغالطات والتوجع والسكوت، فلا يجدي فتيلاً، وقد نكون نضحك على أنفسنا وعلى الشعب، وعلى إخواننا العرب.. إذا قبلنا اتحاداً أعرجاً أو مبتوراً، ما دمنا نسير على أقدامنا، نقطع الفَلوات والمحيطات، بينما يسير إخواننا بسرعة الريح: يبنون ويتقدمون ويصنعون بلادهم..

إن هذا غش لضمائرنا، وخداع للعرب، ولسوف يكون الفشل والفضيحة لكل مسعى أو جهد اتحادي أو وحدوي، وسيُعتبر سكوتنا تاريخياً مساهمة في الفشل والضياع، والمستقبل كفيل بصدق ما أقول.

إنكم إذا قمتم بهذا العمل، فلسوف يكون أولئك الذين يتلاعبون بمقدرات الشعب - ليظهروا على المسرح كأبطال ودعاة وحدة - أمام الأمر الواقع، وليس أمامهم إلا الموافقة، وهذا ما نبغيه، أو الرفض، وهذا هو الاحتمال الصحيح، وحينئذ سيكونون في أحرج المواقف، وتكون لهم هزيمة نهائية، أمام الحق وأمام العرب. فلا تسكتوا واعملوا وناضلوا والله معنا.

يحيى حسين الشرفي

وبعد..

وبعد . . .

فإن الأحرار اليمانيين منذ نضالهم خلال ربع قرن كانوا قد اعتنقوا نظرية ثابتة لا تتغير، وهي أنه لا حياة للجزء المستقل من اليمن، ولا تحرير للجزء المحتل ولا عزة ولا نهضة ولا مشروع وحدة أو اتحاد مع العرب يمكن أن يتحقق على صعيد الواقع إلا بقيام جهاز إداري حديث كامل تنظمه القوانين وتنفذه حكومة شعبية تمثل الشعب، ويؤازرها عون عربي واستشارة وخبرة واسعة النطاق.

وبغير هذا لا يكون من الممكن أبداً أن تصنع اليمن لجنوبها خيراً، أو تدفع عنه أو عن نفسها خطراً كما لا يمكن أن ينجح فيها مشروع وحدة أو اتحاد.

لقد ناضل الأحرار اليمنيون طويلاً وكان من أهدافهم الكبرى وحدة اليمن الطبيعة وتحريرها من الاستعمار والرجعية كخطوة لا بد منها في سبيل الوحدة العربية، وكانت خططهم الثورية لا تختلف عن خطط الثورة والتحرير في كل من الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية.

ولكن بما أن حكّام اليمن قد أعلنوا قبولهم الاتحاد مع العرب فإن الاحرار يؤيدونهم على ذلك، غير أن هذا التأييد مشروط بالتنفيذ. والتنفيذ مستحيل كل الاستحالة إذا لم يقم في اليمن جهاز حكومي حديث تهيمن عليه وزارة شعبية تمثل حق الشعب وتُعبّر عن إرادة الشعب.

وسنمضي قُدُماً في نضالنا حتى يتحقق الهدفان الكبيران لنضالنا: السيادة الشعبية، والوحدة الوطنية.

وبذلك نستطيع أن نلتقي مع زملائنا المناضلين في الصعيد القومي لنحقق الأهداف القومية العليا في وحدة شاملة حرة تقدمية.

****

قصائد

من شعره في الثورة

الفهرس

*****

إلى وطني

الشاعرية في روائع سحرها
أنتَ الذي سوَّيتَها وصنعتَها
ما لي بها جُهْدٌ، فأنتَ سكبتها
بدمي وأنتَ بمهْجتي أودعتها
أنتَ الذي بشذَاكَ قدْ عطّرتَها
ونشرتَها بينَ الورى وأذعتَها
وقفت لساني في هواك غِناءها
فإذا تَغَنَّتْ في سِواكَ قطَعْتُها
يتّمتَ روحي في علاك، وصُغتها
بسناكَ، ثمّ طردتها وفجعتها

أبعدتني عن أُمّة أنا صوتها العالي، فلو ضيّعتني ضيّعتُها

حَمّلَتني آلامَها ودموعَها
ومنعتَني عن وصلِها، ومنعتها
ناديتَ أشتاتَ الجراحِ بأمّتي
فجمعتَها في أضلعي وطبعتَها
ما قالَ قومي: آه... إلاّ جئتني
فكويتَ أحشائي بها ولسعتها

عذّبتني وصهرتني، ليقول عنك الناس هٰذي آية أبدعتها.

****

مصرع الضمير

حينما قدمتُ إلى اليمن من مصر حوالي عام ١٩٤١، انهالت عليَّ نصائح الأصدقاء والأقرباء، بأن ألزم الصمت، والخمول، وأغضّ الطرف عن كل ما أراه من شرور، وأعكف في عقر داري.. ولا أتحرك منه إلاّ إلى «المقام الشريف» أو أنصار المقام الشريف وقيل لي: إذا أردتَ أن تعيش سعيداً مع أهلك وأن تنال المرتب والوظيفة فلا بد أن تتبع هذه التعاليم. أما إذا رفضت هذه التعاليم فلا تنتظر غير بلايا ورزايا ومحناً متلاحقة.

وقد حذّروني أشد التحذير من أن أُلقي خطبة أو محاضرة أو أجتمع بأي فرد مستنير، وفي هذا الجو المكفهرّ جاشت نفسي بهذه القصيدة:

مُـتْ فـي ظُـلـوعِـكَ يـا ضـمـيـر
وادْفُـنْ حـيـاتَـك فـي الـصـدور
إيّاكَ والإحْساسَ فالدنيا العَريضة للصخور
لا تطمئِن إلى العدالةِ، فهي بُهتانٌ وزور
لا تُنسَبَـنَّ إلـى الثقافـةِ. فهـي داعيـةُ الثبـور
حَـطِّـمْ دمـاغَـكَ إنّـهُ
شَـرٌ بـرأسِـكَ مـسـتـطـيـر

مـزِّقْ فـؤادكَ إنَّـهُ
يُـؤذي الخـليفـةَ والأمـيـر
لا تَنْطِقَـنَّ الحَـقَّ. فهـو خرافَـةُ العصـرِ الغريـر
لا تنتصـر للشّعب. إنْ الشّعـبَ مخلـوقٌ حقيـر
لا تَطمحَـنَّ فلسـتَ أكثـرَ في الحيـاةِ من الحمير
لـن تَرتَـدي غيـرَ اللّجامِ. ولَن تذوقَ سِوى الشعير
واحـذَر تصـدِّق رؤية العينيـن. أو نَبْضَ الشعـور
فإذا نظـرتَ دجًى. فأعلـن أنه الصبـح المنيـر
وإذا تـرى الشيطـان عربيـداً فقُـلْ ملـك طهـور
فالنُّضـحُ مـن شـؤمِ الفضولِ... ومِنْ أضاليل الغـرور
****
آهٍ... لِمـصـرعِ أُمـةٍ
دُفِـنَـتْ. ومـا بَـرِحَـت تـسـيـرا!
كانت أسـودَ الغـابِ. وهـي اليوم دودٌ في القبـور
لم تَستَـرِحْ مـن رعـب دَيجـورٍ. ولا مِـنْ عِبءِ نير
يخشـى التّنَفّس فـي هـواه. والتّحـرك وسْطَ نـور

فخذوهُ في سجن البغاة. فإنّهُ شؤمٌ خطير
واعنوا بـه قبل اللصوص وقبل أرباب الفجور
أيقوم يُنهي النّاسَ عند خليفة اللهِ الكبير
إنَّ الإمامَة عصْمَةٌ
عُظمى تَجلّ عن النّكير
والأمر بالمعروفِ كُفْرٌ بالمليك وبالوزير
لا تتركوا قلماً يُسَطّرُ. أو دماغاً يستنير
لا تأمنوا العَقْلَ المُفكِّر، فهو خوّانٌ كفور
لا تنشروا العرفان، إلاّ في المبادىء والقشور
فالعِلمُ يَكْتَشِفُ الزوايا والخبَايا والسُتور
ودَعُوا لنا شَعبٌ نُحَنّطُه بأوهام العُصور
ونُذيقَهُ نوماً يَغِطّ بهِ إلى يوم النُّشور

****

الخروج من اليمن... السجن الكبير

أول قصيدة بعد هجرتنا إلى عدن

خرجنا من السجنِ شمَّ الأنوفِ
كما تخرجُ الأُسْدُ مِن غابِها
نمرّ على شَفَراتِ السيوفِ
ونأتي المَنيَّةَ مِن بابِها
ونأبَى الحياةَ إذا دُنِّسَتْ
بِعَسْفِ الطّغاةِ وإرهابِها
ونَحْتَقِرُ الحادِثاتِ الكِبار
إذا اعترضَتْنَا بأتعابِها
ونعلمُ أن القضا واقِعٌ
وأنَّ الأمورَ بأسبابِها
سَتَعْلمُ أُمّتنا أنّنا
ركِبنا الخطوبَ حناناً بها
فإن نحنُ فُزْنا فيا طالما
تَذِلّ الصّعابُ لطُلاّبِها

وإنْ نَلْقَ حَتْفاً فيا حَبَّذا
المَنايا تَجيءُ لِخُطّابِها

****

أنِفْنا الإقامَةَ في عُصْبَةٍ
تُداسُ بأقْدامِ أربابِها
وسِرْنا لِنُفْلِتَ من خِزْيِها
كِراماً ونَخْلُصَ من عابِها
وكَمْ حَيّةٍ تَنْطَوي حَوْلَنا
فَنَنْسَلُّ مِنْ بينِ أنيابِها
ويا رُبَّ مَمْلَكةٍ كنتُ قد
لَهَوْتُ بها وبأصحابِها[1]
تَظُنُّ السماواتِ تَعْنو لها
وتَجْثو خُشوعاً لأحسابِها
وأنّ النبوءة إرثٌ لها
تَتيهُ بها وبألقابِها
وإنّا عَبيدٌ خُلِقْنا لها
لِنَبْقى سُجوداً بأعتابِها

(١) إشارة إلى القصائد الوثنية التي نُوِّمْنا بها وشراسة الغاب وانسللنا بها من بين الأنياب.

وليسَتْ بشيءٍ سوى أنّها
عجوزٌ تُجَنّ بألعابِها
تُغَذّي البلاد بأسواطِها
وتَسْقي الرعيّةَ من صابِها
رجالُهُمُ عندَ سجّانِها
وأموالُهم عندَ سلّابِها
لئِنْ جَرَّعَتْنا مَريرَ الحياة
فلا بُدَّ تَشْرَبُ مِن صابِها
أترمي بنا في عميقِ السجونِ
ونُصبِحُ عُبّادَ أنصابِها
وتطمعُ من سُخْفِها أنّنا
نَكونُ كَخُلَّص أحبابِها
ولو عاملوا مِثلَنا السّائماتِ
لداسَتْ جِباهُمْ بِأعْقابِها

****

نَصَحْتُ فقالوا: هدَمْتَ البلاد
وزلْزَلْتَ بُنيانَ أقطابِها

وما أنْتَ والنّصْحَ في أسرَةٍ
تَنالُ السماءَ بأنسابِها
وقد نزلَ الوحيُ من أفْقِها
وحَلَّ النّبيُّ بِأثوابِها
وما الحقُّ والعلمُ والعاملون
إلاّ قرابين محرابِها
حَذارِ الخِطابَةَ إنَّ السجون
تَهَشّ إليكَ بترحابِها
****
فيا مَلِكاً لَجَّ في بطشِهِ
وداسَ البِلادَ وأخْنى بها
ودَبَّ لأمّتِهِ في الظّلام
دَبيبَ اللصوصِ لأسلابِها
وذَرَّ الغُبار بأجْفانِها
وصبَّ السمُومَ بأعصابِها
وقالَ لها مصر أُمّ الفجور
تسيلُ الخُمورُ بأبوابِها

وبغدادُ عاصمةُ المُلحِدين
ومكةُ نَهْبٌ لسلاّبِها
وما الأرضُ إلاّ لنا وحدَنا
ولكنّهمْ غالَطونا بِها
****
نَهضتَ لتَخريبِ عمْرانِها
وقُمْتَ لتَحطيمِ ألبابِها
ووطّدت عرشكَ فوقَ القبورِ
وأزعَجْتَ رِمّة أصحابِها
وشيّدتَ مملكةً للفَنا
تقومُ القيامَةُ من بابِها
ألَمْ تخْشَ من أُمّةٍ أصبحتْ
إليكَ تُكَشِّرُ مِن نابِها؟
وتَزأرُ غضْبَى زئيرَ الأُسودِ
وأنتَ الملومُ بإغضابِها
سَتَلْقى مغبّةَ ما قد صَنَعت
وتجني المخالب من غابِها
****

صرخةٌ إلى النائمين

ناشدتُكِ الإحساسَ يا أقلامُ
أتُزَلزَلُ الدنيا ونحن نِيَامُ

قُمْ يا يَراعُ، إلى بلادك نادها
إنْ كانَ عندك للشعوبِ كلامُ

فلطالَما أشْعَلْتَ شِعْرَكَ حولَها
ومِنَ القَوافي شُعلَةٌ وضِرامُ

لمّا أهَبْتَ بها تُطارِدُ نومَها
ضَحِكَتْ عليكَ بجفْنِها الأحلامُ

وصَرَخْت في أسماعِها فتحرّكت
لكن، كما يتحرّكُ النُوّامُ

نَخْشَى سيوفَ الظُّلمِ وهي كليلةٌ
ونُقدِّسُ الأصنامَ وهي حُطامُ

وتَذِلّ أمّتُنا، لِفَرْدٍ واحدٍ
لا تُسْتَقادُ لمثله الأنعامُ

نُسْدي له أموالَنا ونفوسنا
ويَرى بأنّا خائنونَ لئامُ

نَبْني له عرشاً يَسودُ فيبتَني
سِجْناً، نُهانُ بظلِّهِ ونُضامُ

تحنو الرؤوس له خشوعاً ظُلَّعاً
وتَنوءُ من أصفادِهِ الأقدامُ

كَمْ سبّحَتْهُ ألْسنٌ، فتَجرَّعَتْ
منهُ، مذاقَ الموتِ وهو زُؤامُ

كَم من أبٍ وَاسى الإمامَ بروحِهِ
ماتَتْ جِياعاً بعدَه الأيتامُ

يمتصّ ثَرْوةَ شعبِهِ ويُميتُه
جوعاً، ليَسْمَنَ آلُهُ الأعلامُ

طَعَناته قدسيّةٌ، نزَلَتْ بها
البركات والآيات والأحكامُ

عمَلُ الورى في رأيِهِ كُفْرٌ، وما
يأتيهِ، فهو شريعةٌ ونظامُ

*****

أبناءُ قحطان عبيدٌ، بعد ما

عَبَدَتْهُمُ الزعماءُ والحكّامُ

كانَتْ سيوفهم تؤدّب كل

جبّارٍ، بغيرِ السيفِ ليسَ يُقَامُ

كانوا الأباةَ وكانت الدنيا لهم

والمُلكُ والراياتُ والأعلامُ

نزلوا بيثرِبَ والعراقِ، فشيّدوا

مُلْكاً، كبيرَ الشأنِ ليسَ يُرامُ

وهمُ الأولى، اقتحموا على أسبانيا

أسوارها، فتحكّموا وأقاموا

وهمو، بمعتركِ الحروبِ صوارِمٌ

وهمو، لبُنْيَانِ العروشِ دِعَامُ

كانوا، بأعصابِ العروبةِ ثورةً

تُمْحَى الملوكُ بها وتُرْمى الهامُ

وهمُ الأولى البانونَ عرشَ أميّةٍ

نهضَ الوليد بهم، وعزَّ هِشامُ

غضبوا على مروان فأقلبت به الدنيا، وثارت ضده الأيامُ

كانت سيوفُهم تُضيءُ فتمنح التاريخ أفقاً ليس فيه ظلامُ

كانوا زماماً للخِلافةِ، مُزِّقَتْ

أوصالُه، فَتَمَزَّقَ الإسلامُ

قحطانُ، أصلُ العربِ، منذ تهاونوا

بحياتها، عاشوا وهُمْ أيْتامُ

لهُم الجبالُ الراسياتُ، وأنفسٌ

مثلُ الجبالِ الراسياتِ عِظَامُ

أتراهُمو صنعوا الذّرى، أم أنها

صَنَعتهمُ، أم أنَّهمْ أتْوامُ

وُلِدُوا عمالقةً مُحَنَّطَةً، كما

وَلَدت فراعنةً لها الأهرامُ

قَدِموا من التاريخِ في جَبَهاتِهِم

من آلِ حِمْيَرَ، غُرَّةٌ ووِسامُ

يتساءلونَ أحِمْيَرٌ فوقَ الورى،

كالأمسِ أمْ تلكَ الرُؤى أوْهامُ؟

ابن (السعيدةُ) إنّ فيها جَنّةً
خَضْرا، نَماها الدهرُ وهو غلامُ؟
أينَ القصورُ الشمّ؟ أينَ بُناتُها الأقيالُ أين ملوكُها الأعلامُ
أينَ البحارُ من السدود، يُرى لها،
بينَ الشواهِقِ زَخْرةٌ وزِحامُ؟
أينَ السّلالةُ من مَعينَ وحِمْيَرِ
هل أيْقَظوا الدنيا لهم، أمْ ناموا؟
هل سابقوا الأقطار في وَثباتِها
هل حلّقوا حولَ النجومِ وحاموا؟

****

ماذا دهى قحطانَ؟ في لحظاتِهم
بُؤسٌ، وفي كلماتِهم آلامُ؟
جهْلٌ، وأمراضٌ وظلمٌ فادحٌ
ومخافةٌ، ومجاعةٌ، وإمامُ؟
والناسُ، بينَ مُكَبّلٍ في رِجلِهِ
قيد، وفي فمِهِ البليغِ لِجَامُ

أو خائفٍ، لم يَدْرِ ما يَنْتابُهُ
منهم، أسِجنُ الدهرِ، أم إعدامُ؟
والاجتماعُ، جريمةٌ أزليةٌ
والعِلمُ إثْمٌ، والكلامُ حرامُ
والمرءُ يهربُ من أبيهِ وأمِّهِ
وكأنَّ وصلَهما لهُ إجرامُ
والجيش، يحتلّ البلادَ، وما له
في غيرِ أكواخِ الضعيفِ مُقامُ
يسطو ويَنْهَبُ ما يشاء، كأنّما
هو للخليفةِ، مِغولٌ هَدّامُ
والشّعبُ، في ظلِّ السيوفِ ممزَّقُ
الأوصال، مضطهدُ الجنابِ يُضامُ
وعَلَيْهِ إمّا أنْ يُغادرَ أرضَهُ
هرباً، وإلاّ فالحياةُ حِمامُ
نثروا بأنحاءِ البلادِ ودمّروا
عُمْرانَها، فكأنَّهم ألغامُ

أكلوا لُبابَ الأرضِ، واختصوا بها
وَذَوُو الخصاصةِ واقفون صيامُ
وكأنهم هُمْ أوجدوا الدنيا وفي
أيـديهـمُ تـتـحـرَّكُ الأجـرامُ
هبْ أنهم خلقوا العباد، فهل لمن
خلقوهُ عطفٌ عندهم وذِمامُ
ما كان ضرَّهمُ وهم من هاشمٍ
لـو أنهـم مـثـل الجـدودِ كِرامُ
لـكـنـهـا الأخـلاقُ أرزاقٌ بهـا
يجري القضاءُ وتُقَدَّرُ الأقسامُ
يا قوم هبّوا للكفاحِ وناضِلوا
إنَّ المنامَ عـن الـذِّمـامِ حـرامُ
تستسلمونَ إلى قُساةٍ ما لهم
خُلُقٌ، ولا شرعٌ، ولا أحكامُ
ولقد صبَرتُمْ ثلثَ قرْنٍ لم يَصُنْ
أعراضَكم صَبْرٌ ولا استسلامُ

لن يَبرح الطغيان ذئباً ضارياً
مـا دامَ يـعـرِف أنَّـكـم أغـنـامُ
فتكلّموا كيما يصدّق أنكم
بـشَـرٌ، ويـشـعـرَ أنَّـهُ ظَـلاَّمُ
وتحركوا كي لا يظن بأنَّكم
مَوْتى، ويُحسَبُ أنَّكم أصْنامُ
طارَ الورى متسابقينَ وما لكُم
في السَّبْقِ أجنحةٌ ولا أقدامُ

*****

إنْ لم تطيروا في السماءِ فكيفَ لم
تمشوا وتمشي الشاءُ والأنعامُ
ومـذبـذبـيـن[1]، تـلـوّنـاً وتـردداً
لـعَـنَـتْـهُـمُ الحـسـنـاتُ والآثـامُ
قلنا: ارفعوا الأسواط عن أجسادِكُم
قـالـوا: لـنـا لـومُ الإمـام أثـامُ

(١) يعرض بهذه الأبيات التالية ببعض الصحف المرتزقة في اليمن وكتابها.

تـاللّـهِ مـا بِهِـمُ الإمامُ، وإنّـما
ولعوا بسَوْطِ المستبدّ وهاموا

باعوا الضمائرَ للمَهانةِ مثلما
تُبْتاعُ للحَمْلِ الثقيلِ سَوامُ

وإذا ثَوَتْ بينَ الضلوعِ بهائمٌ
قَوِيَتْ على حَمْلِ العصا الأجسامُ

يتطاولون إلى شؤون ما لهم
عِلْمٌ بمعناها ولا إلمامُ

لا يحسبونَ الدّين إلاّ أنّهُ
عندَ الأميرِ دراهمٌ وطعامُ

كتبوا وما هذا الذي بمقالِهم
إلاّ وباءٌ في النّهى وسَقامُ

ساموا الصحائفَ أن تنوءَ بجيفةٍ
نَفَحَتْ فظنّوا أنها إلهامُ

يتشدّقونَ، فتسخرُ الفُصحى بهم
ويُحرّرون فتضحكُ الأقلامُ

تاللّهِ ما عزَّ امروءٌ ودعاتُه
نَفَرٌ كأشباحِ الظلامِ طغامُ

يَغْفونَ عن طغيانِه وبلادُهم
تُلحى على أنّاتها وتُلامُ!

ويُقدّسونَ خناجراً فَتَحَتْ لها
جرحاً بقلبِ الشّعبِ لا يَلْتامُ

سيُحاسَبونَ، فقدْ دَنا لحسابِهم
يومٌ يسوءُ الخائنينَ ظِلامُ

وسيندمُ المتزلّفونَ ندامةَ الوَثنيّ يومَ تُحطّمُ الأَصْنامُ

عدن عام ١٩٤٥

*****

قيد جماعي

من قصيدة طويلة وصفتُ فيها بعض الأحرار، وقد شُدَّت أعناقهم بالسلاسل وطاف بهم زبانية الطغاة مسافة أيام طويلة كانت بدايتها بالطواف حول صنعاء، وكانوا يسيرون في الطرقات الوعرة وبين الجبال والشِعاب مشياً على أقدامهم، والسياط من ورائهم، والأغلال في رِقابهم تشد بعضهم إلى بعض.

وقد عاشوا أيامهم السود تحت رحمة هذه الأغلال حياة موحّدة وعذاباً موحّداً ونوماً وتبولاً وتحركاً وسكوناً كل ذلك، موحداً جعلهم كأنهم مخلوق غريب مسخ شذت به طبيعة التكوين. فكررت أعضاء لا تتكرر، ووحدت أجزاء لا تتوحّد، أو كان الطاغية المتألّه الذي ينازع الله في سلطانه. سوّلت له نفسه أن يبتدع نموذجاً منكراً للتكوين البشري، يزعم له خياله أنه أضخم من النموذج العادي للبشر وأوفر أعضاء، وأثقل وزناً، وأعظم لذلك قيمة وأهمية، وتذوّقاً للعذاب.

من هذه القصيدة:

طافوا بهم حَوْلَ صَنعا يَطمسونَ بهم
حقاً يضيقُ به الطاغي ويخشاه
وطَوَّقوهُم جَميعاً ضِمْنَ سِلْسِلَةٍ
مِنَ الحديدِ يَهولُ النَاسَ مَرْآه

يَكُبُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِمَنْكِبِه
وتلتقي أرجُلٌ منهم وأفْواه
إذا تَحَرَّكَ فيهم واحدٌ صَرَخوا
واسْتَفْحَلَتْ فيهمُ الآلامُ، والآه
كلّ امرىءٍ منهم خَطْبٌ لصاحبِه
يُؤذِيهِ وهو بريءٌ حين آذاهُ
ضَاقَتْ رِقَابُهُمُ في الغُلِّ واحتَرَقَتْ
أقدامُهُم من رَحيلٍ طالَ مَنْآه
إذا اسْتفاتَ أسيرٌ مِنْ مَتَاعِبِهِ
لَبَّتْهُ بُنْدُقَةُ الجندي ورجلاه
فَنٌّ من البَطْشِ والتعذيبِ مبتكرٌ
خليفَةُ اللهِ للأجيالِ أهداهُ
سيقوا جِياعاً ولم يَسمحْ مُعذِّبهم
أنْ يَسْتَعِدُّوا بزادٍ يومَ بَلْواه
وسارَ مِنْ خَلْفِهِمْ جُنْدٌ زبانية
إذا أتوا خِزْيَةً من أمْرِهم تاهوا

يَسْتَمْنِحونَ مِنَ الأَسْرى مآكلَهم
يا لُؤمَ مَنْ راحَ يَسْتَجْدي ضحاياهُ
والعسكريُّ بَليدٌ بالأذى فَطِنٌ
كأنَّ إبْليسَ للطغيان رَبّاهُ

ومنها:

قَسَوْتَ في البطْشِ يا هذا بلا تِرَةٍ
كانَت لدينا ولا إثمٍ كَسَبْناهُ
كنا نَراكَ أباً بَرّاً، ومُذ لمعَتْ
سُيوفُ بطشكَ رَدَّتْ ما زعمناه
ما كان أجْدَرَ أنْ تَسْمو إلى المثل
... الأعلى وتفهم شيئاً من مَزاياه
إذاً لكُنتَ «أميرَ المؤمنين» كما
يَقْضي لكَ الحقُّ في أسمى قضاياه
لكن تَجَنَّيْتَ حتى لم تَدَعْ أحداً
إلاّ وأفْسَدْتَ دُنْيا وأُخراه
أفكارُكَ السُّودُ لم تتركْ لشَعبِكَ مِنْ
ضوءٍ تَجُولُ بهِ في الأرضِ عَيناه
وقد تمَكَّنْتَ أَنْ تَقْضي قَضاءَكَ في
شَعْبٍ يَسيرُ بِلَيْلٍ ما تعدّاه

تَسُومُنا الخَسْف حتى ليس في يدِنا
إلاّ حديد بلا ذنبٍ حَمَلْناهُ
أرضُ الجدودُ التي فيها دمٌ عَبَقٌ
مِن ريحِهِمْ لَمْ تَعُدْ مما ورِثْناه
نَسيرُ فيها عَبيداً، أو نغادرها
أذِلَّةً يا لَبؤسٍ قد لَقِيْناه

****

«صنعاء» ويحكِ ما للظلم قد رسخَت
آثامُه فيكِ، واسْتَشْرَتِ خطاياهُ
وسّعتِ صدركِ للطغيان يصنعُ ما
يَهْوَى وعينُكِ تُحميهِ وَتَرْعاهُ

ومنها:

تَجَلُّداً أيُّها الأحرارُ إنَّ لكم
وِتْراً عَزيزاً علَيْنا ما دَفَنّاه
إنّا وَهَبْنا شبابَ العمرِ للوطنِ الدامي
... وإنقاذِ عَطشاهُ وغَرْقاه
لا بدَّ أن تدرِكوا يومَ الخلاصِ وما
بُدٌّ لنا أن نُلاقي ما طَلَبْناهُ

****

صيحة البعث

ألقيت في أول اجتماع عام لحزب الأحرار اليمنيين بعد عام ١٩٤٣

سَجِّلْ مكانَكَ في التاريخِ يا قَلَمُ
فهٰهُنا تُبْعَثُ الأجيالُ، والأُمَمُ
هنا القلوبُ الأبيَّاتُ التي اتَّحَدَتْ
هنا الحنانُ، هنا القُرْبى، هنا الرَّحِمُ
هنا الشريعةُ من مشكاتِها لَمَعَتْ
هنا العدالةُ والأخلاقُ والشِيَمُ
هنا العروبةُ في أبطالِها وَثَبَتْ
هنا الإباءُ، هنا العَلْياءُ، هنا الشَمَمُ
هنا الكواكبُ، كانت في مَقَابِرِها
واليومَ تُشْرِقُ للدُّنْيا، وتَبْتَسِمُ
هنا الصوارمُ منَ الأغمادِ ثائِرَةً
هنا الضياغِمُ في الغاباتِ تَصْطَدِمُ
هنا البراكينُ هَبَّتْ مِن مضاجِعِها
تَطْغى، وتَكْتَسِحُ الطاغي، وتَلْتَهِمُ

لَسْنا الأولى أيْقَظوها مِنْ مَراقِدِها
اللهُ أَيْقَظَها، والسَّخطُ، والألَمُ
شَعْبٌ تَفَلَّتَ مِنْ أغلالِ قاهِرِهِ
حُرّاً فَأَجْفَلَ مِنْهُ الظُّلْمُ، والظُّلَمُ
نَبا عنِ السّجنِ ثمَّ ارْتَدَّ يَهْدِمُهُ
كيلا تُكبَّلَ فيهِ بعدَهُ قَدَمُ
قَدْ طالَما عَذَّبوهُ، وهو مُصْطَبِرٌ
وَشَدَّ ما ظَلموهُ، وهو مُحْتَكِمُ
لَمْ يَكفِهِم، أنَّهُ عبدٌ، وأنَّهُمُ
أرْبابُهُ، ويحسِبونَ اللهَ دونَهُمو
أذابَ مُهْجَةً فيهِم، فما اعترَفوا
بها، ولا قَنِعُوا منها، ولا سَئِموا

*****

إنَّ القيودَ التي كانَتْ على قَدَمي

صارَتْ سِهاماً، مِنَ السَّجانِ تَنتَقِمُ

إنَّ الأنـينَ الـذي كُـنَّـا نُـرَدِّدُهُ

سِرّاً، غَدا صيحةً تُصْغى لَها الأُمَمُ

والحقُّ يَبْدأُ في آهاتِ مُكْتَئِبِ

وَيَـنْـتَـهـي بِـزَئـيـرِ مِـلْـؤُهُ نِـقَـمُ

****

جُودوا بِأَنفسِكُمْ للحَقِّ، واتَّحِدوا

في حَرْبِهِ، وثِقُوا باللهِ، واعتَصِموا

لَمْ يَبْقَ للظَّالِمِينَ اليومَ مِنْ وَزَرٍ

إلاّ أنـوفٌ ذليلاتٌ سَـتَـنْـحَـطِـمُ

إنَّ اللّصوصَ وإنْ كانوا جَبابِرَةً

لهُمْ قلوبٌ مِنَ الأطفالِ تَنْهَزِمُ

والشّعبُ لو كانَ حيّاً، ما اسْتُخِفَّ بِهِ

فَرْدٌ، ولا عاثَ فيهِ الظالِمُ النَّهِمُ

*****

في محراب الإمام يحيى

أيها الـظـالـمُ الـذي يـتـبـاهـى

أنّهُ ابنُ الـوحـي أو سـبـطُ طه

تـشـهـدُ النّاسَ يركعون حواليك

... دهـوراً ويخفضون الجباها

تتوخى بأنْ تكون شريكَ الله

... فـيـهـم أو أن تـكـون الله

لا تُبالي سمِعْتَ أنغامَ موسيقى

... تغنيكَ أو سَمِعْتَ الآها

كـلّـهـا لـذّة الألـوهـيـة الـنـكـراء

... في سمتها وفي معناها

وإذا جـئـت لـلـمُـصـلّى رأيْـنـاك

... نِـفـاقـاً مـوحـداً أواهـا

إنْ تـكُـنْ أنـتَ مـؤمـنـاً بـإلـهٍ

فـلـمـاذا تـكـونُ أنـتَ الإلـهْ

*****

العجوز وعسكري الإمام

«من قصيدة ضاع معظمها»

المرأة:

يا ربّ كيفَ خلقت الجندَ ليسَ لهم
عندي طعامٌ ولا شاة ولا نعم

وَيلاه ما لي أرى وحشاً وبندقه
أذلّك العسكري الغاشم النهم؟

العسكري:

نعم أنا البطل المغوار جئتُ إلى
عجوزة لم يهذب طبعها الهرم

إنّا جنودُ أمير المؤمنين فلِمَ
لا تذبحي الكبش يا حمقاء دونهمو؟

أين الدجاجة؟ أين القات فابتدري
إنّا جياعٌ وما في حيّكم كرَم

المرأة:

يا سيدي ليس لي مالٌ ولا نشب
ولا رجالٌ، ولا أهلٌ، ولا رحْم

إلاّ بُنَي الذي يبكي لمسغبةٍ
وتلكَ أدمعه الحمراء تنسجِم

وهذه البيد فاقطف من هواجرها
ما شئتَ إنّا إلى الرحْمن نحتكِم

ماذا يريدونَ من جوعي ومسغبتي
إني لكالحملِ المشويّ بينهم

يطلبونَ زكاة الأرض؟ ليس بها
إلاّ الحمام وإلاّ الحجر والرخم

أم جزية الكوخِ لا كانت جوانبه
السوداء ولا نهضت في ظلّه قدَم

أمْ قيمة القبرِ قبل الموتِ وأسفاه
الكوخُ قبري فما للظالمين عموا؟

العسكري:

إني إذن راجعٌ للكوخِ أهدُمُهُ
يا «شافعية» إن الكَذِبَ دأبكمو

*****

الفهرس

*****

فهرس الموضوعات

*****

هذا الكتاب

كانت الإمامة الأكثر تخلفاً بين أنظمة العالم.

نظام يقوم على الطائفية المذهبية، وجباية الزكاة فقط.

لا مستشفيات، ولا مدارس ولا طرق ولا جامعات..

لا شيء على الإطلاق، بل جهل وأمراض ومجاعة

وإمام. حسب تعبير الشهيد الزبيري رحمه الله.

نقدم هذا الكتاب لأجيالنا الجديدة التي لم تعش

فترة الأئمة الظالمة المظلمة، وحتى لا ننسى معاناة

شعبنا اليمني في ظل حكم الأئمة الكهنوتي،

تلك المعاناة التي يريد بعض الإماميين من مخترقي أحلام

اليقظة إرجاع اليمن إلى عهودها الظلامية..

وهيهات أن يرجع التاريخ إلى الوراء.

علي عبدالله صالح
رئيس الجمهورية



الجمهورية اليمنية
وزارة الثقافة والسياحة
صنعاء - ص.ب: [illegible] - هاتف: [illegible] - فاكس: [illegible] - بريد الكتروني: [illegible]